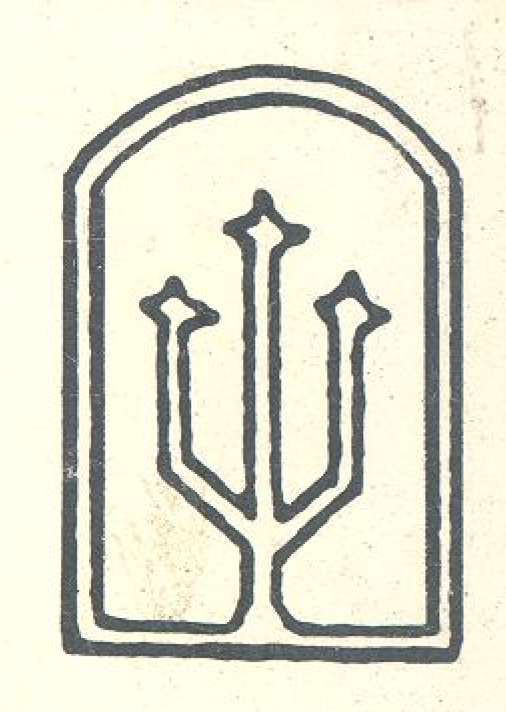


صلاح عبد الحافظ

طريق الذئاب

Wolves' Walk

صلاح عبد الحافظ

طريق الذئاب
أو
قصة حب عربية

WOLVES' WALK
or
An Arabian Romance

الطبعة الاولي

١٩٩٥

الإهـــــداء

الى شـباب هذا الجيـل ، فتيانه وفتياته

أهدي قصة حب أبدي

علهم يجدون فيها درسا ....

يقوم أصل هذه الرواية على ما ورد فى المصادر العربية القديمة من ترجمة المرقش الأكبرعمرو بن سعد وأشعاره .

انظر على سبيل المثال :

- الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى

ط ساسى ، جـ ٥ : ١٧٩ - ١٨٥

- المفضليات

شرح عبد السلام هارون ٢٢١ وما بعدها

المراسلات :

الدكتور صلاح محمد عبد الحافظ

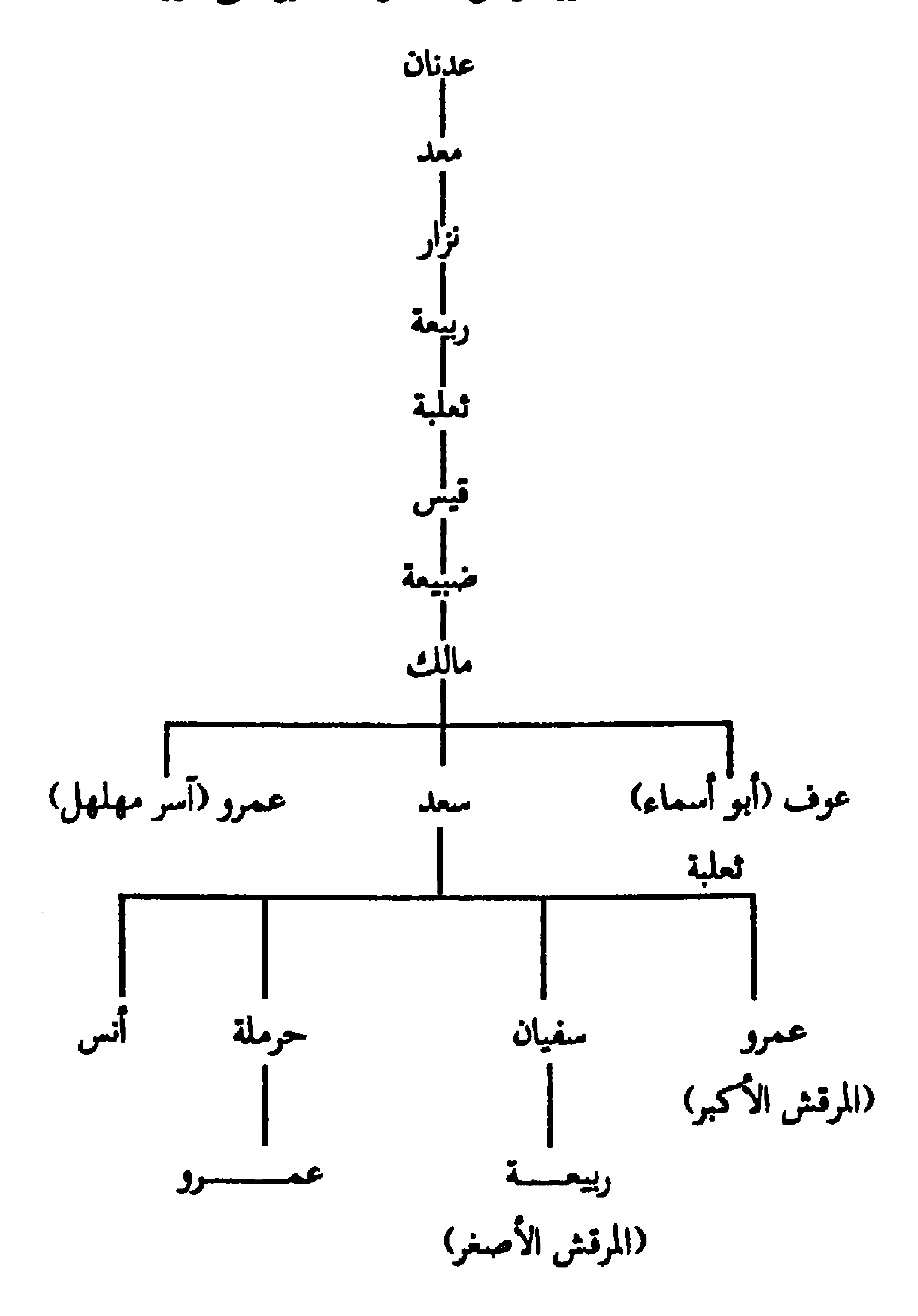
فيلا (١) شارع خليل حسن خليل- جليم - الإسكندرية

ج ٠ م ٠ ع

ت . منزل : ٥٨٧٦٤٢٤

الطبعة الأولى

نسب عمرو المرقش الأكبر كما ورد فى الرواية



عند الحب

سهر أحلى من حلم النوم

ونوم

أيقظ من سهر الخلود

عند الحب

نور

يطوى الشمس والقمر

وموعد

ينسى الليل والنهار

عند الحب

حياة

يهون من أجلها الموت

وموت

تباع من أجله الحياة ،

عباس محمود العقاد

الفصل الأول

الحرب

عواء الذئب
يتردد
يشق سكون الليل البارد
هواء متكاسل يطوف بالمكان
اكتشف الذئب الغنائم الشهية ..
طرب يستحوى أبناء جلدته
أقبلت ...
مهرته أشداقها ... كالحات وبسَّل ..
عواؤها يملأ المكان ،
يبدأ بعيدا ...
يقترب شيئا فشيئا ..
ذئاب غبس ،
كواسب ... لا يمن طعامها ،
أنشأت تنهش من الغنيمة ،
يعلو صوت عراكها ،،
صوتها يختلط بالقضم ،،
تقلب الأجداث ، تنازع الأشلاء ...

نشبت معارك أخرى ،

ربما تكون أشد عنفا من الأولى ،

إحدى جولات الحرب الضروس بين قبيلة بكر بن وائل والتغلبيين ...

شبح كليب

تتلاحم الأجساد والأسياف ،

تتساقط القتلى والجرحى ،

تبرق البيض ،

تعالى الصرخات والصيحات وسط هدير سنابك الخيل ..

يوم قضة ، .. تحلاق اللمم ..

يحمل عوف بن مالك البكرى على فرسه ، حوله الفرسان ، يقاتل ببسالة ،

يا عوف ! أعرض !!

صيحات الفارين تتوالى ...

البعض يستسلم ،

البعض يقتل ،

— يالبكر بن وائل !! أفى كل يوم فرار ؟ ...

والله لا يمر بى رجل من بنى وائل فارا إلا جللته بسيفى هذا ..

رداء يسقط ...

دروع تهاوى إلى الأرض ،

- أرى عوفا برك كالبعير يقاتل ،

يطعن طعنات كفم الزق ..

يشج رأسه ..

- إنه يبغى مأثرة أخرى تنسب لبكر صنيع أخيه عمرو ابن مالك الذى أسر مهلهلا عندما التقى الجيشان من غير مزاحفة فى «نقا الرمل» .

- أجل ياربيعة ، إنه حمال ألوية ، شهاد هيجاء ، للجيش جرار ..

سمى عوف بن مالك منذئذ بالبرَك ...

فقد عوف ابنه ثعلبة فى المعركة ،..

مثار النقع فوق الرءوس ،

القتام الأبيض يحيط بأرض الصراع ،

ضحكت أسماء ،

بدت نواجذها ،

استقبلت الشمس غمازتاها ،

برودة الليل تتلاشى عند الصباح ،

ريح الصحراء تهب ،

خطف عمرو سهمها من يدها وعدا ...

تراب قليل يثور بالمكان ،

نظرت إليه مقطبة ،

عدت وراءه صائحة :

- هات سهمى .. لاحق لك فيه ...

صوت فطرة الصحراء وبراءة الطفولة ..

يظل عمرو يعدو ، وهى فى أثره ،،

يسقط إعياء ، ينعفر جبينه وملابسه ،..

يزيل التراب عن يديه بطرف ردائه المزركش .

تقف ،

يعلوها البهر ،

تضحك ،

صدرها الضئيل يعلو ويهبط ،

تمد يدها البضة ،

صبغ الحناء على الأصابع لايزول ، ولا ينسى ،.

أشفق عليها ، أو أشفق على نفسه ،

مديده بالسهم ، تلاقت يداهما ،

رعشة التلامس تسرى فى الجسد ،

السيوف تلمع ، .. الصليل يتصاعد ،

صرخة حادة أطلقها جريح مثخون .

صهيل وحمحمة أشبه بالعويل ..

التفت عمرو ..

رأى جوادا وفارسا يتعثر ، يسقط ...

يندفع ، يحاول إنقاذه ...

ضربة تهوى عليه من آخر ، يدفعها بترسه ، يطعن الضارب فى بطنه طعنة نجلاء ..

صراخ ،

آهات ألم ،

الارتطام عنيف ،

رشاش الدم المندفع يصدر صفيراً ..

جرحت يد عمرو ،

اليد تحمل ريح أسماء ،

عطرها ما يزال ... لا يزول ..

تطلع إلى العينين ،

ضياء البدر ساطع ،

رأى قمرين معا ،

قبض برفق على أطراف أكفها ،

أحاط خصرها بيد ..

دفعته بيد ...
نطاقها من حرير ناعم الملمس كيدها ،
تلفتت يمينا ويسارا كظبى يخشى صياده ..
لم يبال ...
ضمها إليه .. همس :
– أحبك ...
نفس حار يبحث ،
وشاح يسقط على الأرض ،
كلمة لم تكتمل فى الفم ،
غضت طرفها الساجي وراء جفونها ،
بسمت عن برد ،
لملمت رداءها ،
تلفتت حولها ثانية ،
وذهبت حثيثة الخطو ...
خيل تقبل ، همهمة وصهيل مستمر ،
ضجيج لا ينقطع ،
تقف الخيل فى مكان ،
ترفع أعناقها وتخفضها ، مصدرة صوت صليل ،
أقبل نحوه المجالد بن الريان من فرسان بكر ،، صائحا :

- إن الفرسان يتجهون إلى جمران ، حيث جمع بنو تغلب جموعا أخرى ...

- فأين بنو عامر ؟

صاح فارس على مبعدة :

- ها نحن يا عمرو ...

ساروا معا ...

بجيش كضوء نجوم السحر ،

وكل كميت طوال أغر ،

فما شعر الأعداء حتى رأوا ،

بياض القوانس فوق الغرر ،

أقبلنهم ثم أدبرنهم ،

أصدرنهم قبل حين الصدر ،

أجساد ترتطم بالأرض ..

صرخات الجرحى تمتزج بصيحات المقاتلين ..

تذهب خيل ...

تجيء خيل ...

وكائن بجمران من مزعف ،

ورجل وجهه قد عفر ،

يعلو الغبار ، ثم ينكشف ويتلاشى ...

دامت المعركة يوما وقطعة من الليل ،
الأشلاء الكريمة ملقاة لدى المزاحف والمكر ،
الريح عصوف ،
الرمال تغطى بقايا الأجساد والأشلاء المختلطة بالسلاح
الملقى هنا وهناك ، حركات الأعضاء التى بها بقية من
نبض تقل رويدا رويدا ...
الأنين يتلاشى ...
ملك الموت يحصد ما تبقى من ريق الحياة ،
ثم سكون الموت المطبق ...
يحل الظلام ،
تخفت أصوات الرياح ،
رائحة الدماء تمتزج بنسيم الليل البارد ،
أصوات تقترب ...
سبقت الذئاب الجميع إلى الساحة ،
المعركة الأخرى ...
حطت العقبان النواهل عند بزوغ الصباح ،
تطلب نصيبها من المائدة الحافلة ،
ضرب أجنحتها يختلط بصوت طيور الفجر ،
لم تلق الذئاب التى بشمت لها بالا ،

انسحبت جذلة تنفض رأسها ،
توسطت الشمس كبد السماء ،
لعابها يسيل فوق الوهاد والوديان ...
من وراء الجبل الخالد حيث دارت المعركة عند سفحه ،
أقبل جمع يهمهم ...
صياح نسوة وعويل ثكالى ،
قطعن المسافات ،
جئن يطفن بالأشلاء ،
يبحثن عن بقايا هامات ،
يلملمن ما تبقى من سلاح وثياب ،
يفتشن عن هويات معتمة ،
هويات ازدردتها الهيجاء ضمن ما ازدردت ..
رائحة الموت تنتشر ، تزكم الأنوف ..
لم يطقن البقاء طويلا ..
أسرعن ، وسط النشيج والنحيب ،
يوارين الأجساد والأشلاء التراب ..
صوت آلات الحفر تلقى ..
يلقين نظرة أخيرة ..
يعدن من حيث أتين ،

الصياح والعويل يقل حتى يتلاشى .

شمس النهار تكاد تختفى ،

يقبل الليل ...

أبشرى أم عامر !!

الضباع السواغب أقبلت بدورها تخمع ، لم تفتها المشاركة ،

تبحث عن العفن ...

المخالب الحادة تنبش الأرماس فى لهفة ،،

تعرى الجثث ،

تنشط اللحم ،

تجرجر الأشلاء ،

صوت قضم العظام حتى النخاع يختلط بصيحات الحيوان الذى أضواه الطوى ...

ليس حى يدفع ..

تعود الذئاب فى الليلة التالية فلا تجد ما تأكله .

صخب وصياح وجلبة ،

الجميع يحتفلون بالنصر ،

الأنغام تتصاعد من مؤتر تأتاله إبهام عوادة حاذقة ،

فى صوتها لسماع الشرب ترتيل ،

يرددون من حناجر كالأقماع فح حنينها .

فى ركن قصى من الحانة ،

الفارس يجلس ساهما ، شاردا ،

بعيدا عن الغناء ،

عزوفا عن اللهو ،

تدور الساقيات بكئاس الراح ،

صفت مجالس الشراب بقضب الريحان والسوسن ،

الخمر تدغدغ حلقه ...

أهذه طاقة ريحان جنية ؟ أم يابسة ؟

الراقصات المقدودات شبه العاريات يتمايلن أمام أيدى

السكارى الزاحفة الى جيوبهن .

جونات الخمر تقدح ويفض ختامها ..

- مالى أراك ساهما ؟

الصهباء تقتل أحيانا ..

أآثار الحرب ؟ أم بقايا الذكرى ؟ أم شىء آخر ؟

نظر إلى محل ساقه المفقودة فى معركة قديمة ،

القين الذى يصنع السيوف ويشحذها ، يجلس ،..

يصب كأسا له ...

- والله لست أدرى يارباح ، أتنتهى الحرب بموت

مهلهل ؟ أم أن لها شأنا آخر ؟

أحد الرواد يغلى السباء ،

التاجر يطوف سعيدا على الندامى ، يهش لهم ،

قربت الخمر على النفاذ ،

الراية على وشك النزول ،

الهزيمة حاقت ببنى تغلب .

- أتظنهم يعاودون الكرة ؟ أسمعتهم بعد المعركة ؟ ..

« يالثارات تغلب » ..

الفرسان يصيحون ، يحشدون الجموع ،

- هات العطر أيتها المرأة !!..

يغمسون أيديهم فيه ..

سكارى يخرجون مترنحين ..

آخرون يعبون حتى الثمالة ..

شحاذ كسيح يدلف إلى الحانة متساندا ،

يستجدى بعنف أحيانا ..

مشادة تنشب بين ثملين ،

الكأس تدور من شارب إلى آخر فى إحدى الحلقات ..

- ما خبر مهلهل ؟

- هو من عدوى .، ولكن ما كنت أرضى له هذه الميتة؟

- تقصد موته عطشا فى إسار عمك عمرو ؟

- أجل ، لا حدود للحزن ، هؤلاء القتلى الكرام ،

لم يبق منهم شيء ، حتى العظام ...

الضباع ، الذئاب ، ألسنا كلنا ذئابا ؟؟

ارتطام زجاجات الشراب يبعث رنينا ..

يد مرتعشة تهين السليط فى ذبال قنديل معلق ،

القنديل خابى الضوء ،

- كنت أظنك فارسا معتادا على مثل هذه المواقف،

وخواض حتوف لا تلين له قناة ،

إن وراء قلبك سرا ،

أصدقنى ! أهى أسماء ؟

لم تخف حميا الصهباء حمرة كست وجه عمرو ..

- ليس فى الأمر سر ، فلم يغب عنى طيفها لحظة ،

حتى فى أشد حالات القتال سوءا ،

إن الحب والقتال والشعر عندى شيء واحد .

- الخطبة تريحك وتعجل بالأمر وتحل الموقف ..

اجعل أباك يتوسط لك .. فالعم ليس بغريب ،

مالم يكن في الأمر مالا أعرفه ..

- أبي مهيض من جراء القتال ، يرفض التدخل ..

- « لقد شببت بها ، وما كان ذلك عهدى بولدى ،

لقد عرف الجميع ما بينكما ..»

- وما رأى أسماء ؟

- لا تملك من الأمر شيئا ..

- وأبوها ؟

- لقد مات ولده ثعلبة في الحرب ، وأراه في هم وحزن

دائمين ..

دمعة تنحدر ...

لقد كان ثعلبة معى عند مقتله ..

ثعلب ضراب القوانس بالنسيف ،

وهادى القوم إذا أظلم ،

فاذهب فدى لك ابن عمك ،

لا يخلد إلا شابة وأدم ،

لا بأس بكأس أخرى مفعمة ..

- لقد تقدمت لخطبتها أكثر من مرة ، وموقفه على ما

هو عليه..

– « أتريدها زوجا ، وأنت لا تستقر على حال من جراء القتال ؟

أتراك تعود يوما ؟ أم تعود محمولا ؟ أم لا تعود البتة !!

أسماء !! اتركينا الآن ودعينا وحدنا !..»

هكذا موقفه لا يتغير ، مطال وراء مطال ...

الحزن لا يجدى ...

هل تقطف الثمار قبل نضجها ؟

إنى منتظر حتى تضع الحرب أوزارها ، وتستقر السيوف فى أغمادها .

الرواد يداعبون الراقصات ..

يصيحون طالبين المزيد من الشراب ..

جلبة فى الخارج ..

باب الحانة يفتح فى عنف ،

يدخل حرملة بن سعد بن مالك ..

يتحرك البعض لإفساح الطريق ..

العصا التى يتوكأ عليها تسقط من يده ...

– لا تنحن ، فساقك لا تحتمل الضمادة !

يتجه إلى حيث يجلس عمر ورباح ، تتبعه أنظار الرواد ..

– عما مساء !

- استرح ، لشد ما كابدت !

يصب عمرو كأسا لأخيه ..

يتمنع الأخير بإشارة من يده ،،

يخرج بعض الرواد متساندين ،

يهب هواء منعش منبعث من الباب لدى خروجهم .

- لا أبغي الآن شرابا ..

إن أبانا يريدك للتو لأمر هام ،

يخرج الأخوان ..

بينما يبقى رباح يعب من كأسه .،

همهمة وأصوات حديث غير واضح المعالم ...

قبة مضروبة من أدم ،

العبيد والخدم يقفون خارجها ،

نيران يشب ضرامها أمام القبة ،

يقوم صنم للإله «عوض» ..

أشباح تتحرك هنا وهناك ،

كلب يتشمم جوانب القبة والصنم ،

أصوات الذئاب تسمع عن بعد مختلطة بصوت حيوان الليل .

مجلس القبيلة منعقد ..

شيوخ بكر بن وائل مجتمعون ،

فرسان الوغى حاضرون ،

عوف وسعد وعمرو أبناء مالك بن ضبيعة ، حولهم أبناء

سعد بن مالك :

عمرو وسفيان وأنس وحرملة ، ثم عمرو بن حرملة ...

هرج وجلبة فى الخارج ...

وقع أقدام خيل تقترب ...

أصوات سلاح تختلط بصوت عدة الركوب ..

أحاديث جانبية ،

الخدم يبادرون إلى الأخذ بأعنة الخيل التى تقف ،

يترجل الرجال ،

يدخل القبة الحارث بن عمرو زعيم كندة الأكبر ، وراءه

شيوخ تغلب وفرسانها ..

يقف الجميع لتحية ضيوفهم ..

تأتى الجوارى بصحاف التمر ودنان الخمر ..

نقاش يطول ،

قراع كئوس ،

همس شراب ،

أصوات تعلو وهمهمة تصدر حينا ،

الوقت يمر ...

هواء بارد يحيط بالمكان ،

يقرب الفجر على الانبلاج ،

تصدر صيحات فجأة ، تنم عن اتفاق ...

– هاتوا جميعا أيديكم ...

تحقن الدماء،

يستقر الأمر ،

يولى شرحبيل بن الحارث على بكر ..

ومسلمة بن الحارث على تغلب ..

صيحات وتهليل ..

السيوف ترفع لأعلى ،

يحضر العبيد أغناماً كثيرة

يخرج الجميع ..

يتجهون سيرا على الأقدام حيث صنم الآله «أوال» آله القبيلتين : بكر وتغلب .

التلبية يرددها الحشد :

لبيك حقا حقا ،

تعبدا ورقا ،

جئناك للنصاحة ،

لم نأت للرقاحة ،

يحفر الغبَغب أمام الصنم ..

تشب حوله النيران ،

تذبح العتائر وتلقى فيه وسط الهتاف والدخان ،

يلطخ الصنم الأكبر بدمائها ...

الاحتفال يستمر حتى الفجر ،

الخيل تعود أدراجها مع ظهور صبح جديد ...

– أما آن للفارس أن يستقر ويستريح ؟

يرنو عمرو إلى حيث الأفق تحت ظلال شجرة الكنهبل الضخمة أمام منزله ..

– والله يا سفيان ، أرغب ، ولكن كما ترى ..

مماطلة ، ووعد بالمواعيد ،

جارية تتقدم بصحيفة تمر ، فيصيب منه عمرو شيئا .

– هل لك فى مفاتحة أبينا ؟ ، فهو يتماثل للشفاء ،
وقد يجعله الصلح أكثر استعدادا للمناقشة .

يلفظ عمرو النوى ، واحدة تلو الأخرى ..

– لا بأس، مع إحساسى بأنه لن يبدل رأيه .

جارية تحمل دواء ،

تجلس تطبب جراح سعد بن مالك الآخذة فى الاندمال..

صحاف ترفع ،

دخان بخور معطر يملأ المكان ..

طنافس زاهية الألوان ..

صليل حلى وصليل سيوف تعلق

يقف الفارسان أمام أبيهما

- أراكما جئتما الآن لا لقتال أو مناجذة ..

- إن عمروا يريد أن يفاتحك فى أمر زواجه ...

- أعلم ما يريد حق العلم ، وسبق لى رأى فيه ، ولا تلجآنى لفعل شىء لا أبغيه ولا أرضاه ...

غاب القمير وراء السحب ،

نوم السمر وروح الرعيان ،

هدأت أصوات الإبل ...

- ها أنت ...

أقبلت تمشى على استحياء ، يسبقها عطرها الفواح ،

تلاقت الأيادى والفؤاد ان خلف ربوة بعيدة ..

- حاولت لقاءك بشتى الطرق ، فقد أجد الحل لديك .

- ليس بيدى الأمر .

- أبى لم يبدل موقفه ، وأخشى التقدم لأبيك ، فما رأيك ؟ هل أجد لديه القبول هذه المرة ؟

لا يكاشفني بشيء ، ولا أقوى على البوح خشية بطشه ، وهو الآن - كما تعلم - في حال من الحزن لمقتل أخي، فأرجو - إن تقدمت - التصبر معه والتريث .

- ربما يوافق هذه المرة ، فلقد استكان القتال ، وانصرف الناس إلى أعمالهم ، ومر وقت على وفاة أخيك ، ولقد كثر مطاله ولا يعدم العذر أبدا، ولكن لا مفر - كما يبدو - من التقدم لحسم الأمر ، وسأفوز بك مهما ..

وضعت يدها الناعمة المعطرة على فمه ،

يلوح الوشم المزخرف فى ظاهر اليد

أمسكها برفق قبلها

خفاش يطوف بالمكان ، يدور حولهما ثم يختفى ،

تناولت يده ، ضغطت عليها ، أصابعها تلمس خاتما ذا وشم ، يتوسطه فص لؤلؤى فى أصبع عمرو ...

رفعت يده

نظرت إلى الخاتم تداعبه ، تحركه ..

تركت يده لتمسح دمعة انحدرت فوق خدها ..

- إن غدا لناظره قريب

غوادى الخريف تتجمع فى السماء ..

وراء الأفق البعيد ..

ضوء القمر ينبعث وراء الغيوم

الريح رخاء والحى نيام ،

الفجر يقترب ،

دار أسماء ...

باب الحظيرة يفتح مصدرا صوتا أجش ...

شخيب الحليب فى الإناء يسمع على مقربة ،

تخرج الجارية حاملة الإناء المفعم تطل منه الرغوة ،

تقدم الجارية الإناء لسيدتها فى فراشها ،

أسماء تتناوله وتعب منه ...

تتكيء على الفرش ،

يمر جزء من النهار ،

صويحبات أسماء ولداتها يدخلن عليها ، ويجلسن بجوارها ،

آرام وغزلان رقود ،

نواعم ،

لم يعالجن بؤس عيش ،

أوانس ،

لا تراح ولا تروم ،

بطاء المشى ،

عليهن المجاسد والبرود ،

أسماء تعزف عنهن ..

الهم يشملها ، والانتظار يقلقها .

تدلف إلى حجرتها ..

تحدق فى المرآة ..

تحاول تصفيف بعض من شعرها ..

صفرة تعلو وجهها لم تخف عن جاريتها ..

- سيدتى ..

مالى آراك ساهمة مضطربة ؟

- لا شىء يا هند ،

إنما خوف المجهول ، وخشية حزن الأبد .

- أأمرما ؟

- ليس عيبا ما تبغيه الفتاة لا ستقرارها وسكينة بيتها ، وما هى إلا خطرة وينجلى الأمر ، فصبر جميل ...

- والله ما بقى لى صبر ولا راحة منذ وجدتك على هده الحال منذ أيام .

قامت الجارية للانصراف .

- إن فأس المسحل يا عقبة فى حاجة إلى تنظيف ،
وكذا الأسنان ...

يتفحص عوف بن مالك فم جواده الأجرد ،
الفرس لا يستقر على حال من القلق ..
يرفع رأسه ويخفضها ..
يصدر ما علق عليها صوتا أشبه بصليل الجرس ،
يربت الفارس المحنك على رقبته وبطنه ،
الذيل السابغ يصدر حفيفا عند حركته ،
يضع عقبة أمامه دلو الماء ،
يعب الفرس فى شراهة
فارس يقبل من بعيد
يترجل عمرو ..
يعدل من وضع حماله سيفه ..
يتقدم ويحى عوفا ،
- أهلا ومرحبا ...
يدعوه للدخول ،
يذهب العبد بالفرس والدلو ،
الفارسان يدلفان إلى الداخل ،
يتأمل عمرو الندوب وآثار القتال فى وجه عمه ..

شعر بوجل ...

- لقد جئت لما أتيت له من قبل دوما، وقد انتهت الحرب ...

- موضوع أسماء إذن ؟!

أتراني أوافق ، وقد شبيت بها ، وأثرت فضيحة فى القبيلة، «وعوّض» ، لولا مكانتك عندى ومكانة أبيك لكان لى معك شأن آخر .

- ما هكذا تعالج الأمور ، إننا متحابان ، وليس لك أن تفرق بيننا ...

- تحدث عن نفسك فقط ، فما كان لأسماء أن تخالف أباها ، ألم يكفك ويكفها ما قلته عنها ...

عبد يدلف إلى الداخل حاملا إناء الحليب ، يصب منه للضيف ...

جارية تقدم بعض التمر ،

-كفالك مطالا ، أهناك من تبغيه بعلا لأسماء سواى ؟

- كلا ، فأنت ابن أخ كريم ، ولكن ما حدث حدث ، ولا سبيل إلى محوه أو تداركه .

يمد يده إلى التمر ، يتناول واحدة ، يتركها ، يتناول أخرى ، يصب لنفسه من الحليب .

- لقد طاوعتك في كل ما طلبته ، وسكرت ، وأتيتك طائعا طامعا في موافقتك .

يلوك التمرة في فمه ،

يلفظ النواة ،

يلتقط أخرى ،

يتطلع الى عمرو ،

- يا بن أخي ! إنك حققت وفرسانك نصرا في المعامع ، وقد رفع هذا مكانتك عندي ، ولكن يبقى هناك ما أريده منك لكي تحظى بفتاتك ، وهذا كفيل بمحو أثر ما جلبته لنا من تشهير وفضيحة ...

يصب لعمرو بعضا من الحليب ..

- إنك شاعر ، ولكن ما تزال في حاجة لي مكانة وسط قومك ، تجعل الناس يخشون الحديث عنك ، ويهابون اللغط والجدل فيما تقول ، يحجمون عن ذكرك وأسماء ، لذا أود أن تكون رئيسا في قومك وعشيرتك ، وهذا يحتاج وقتا ، أريدك أن تحمل شارات الرئاسة وتحكم بين الناس ، لكي تصبح موضع فخر لفتاتك ..

يضع عمرو قدحه بعنف ...

- أوليس فيما قمت به من أعمال بطولية يكفي لكي أكون موضع فخر ؟

- يكفي من حيث تكوينك فارسا وبطلا محاربا ، ويبقى تكوينك الاجتماعي القبلي الذى أبغي أن يكون عليه زوج أسماء ..

يعب ما فى القدح دفعة واحدة ...

- وهناك أمر آخر ...

إن الشاعر لابد وأن يأتى الملوك ، ولا بقنع بالجلوس أمام داره يقرض ، ولا يكتفى بأن ينظم الأبيات هنا وهناك فى المناسبات ، ويتبع خطو العذارى والحبيبات ليتحدث عنهن وعن فتنتهن ، فهذا لا قيمة له ولا نتيجة سوى الفضائح وكثرة الأقاويل ، ولن يرفع مكانة شاعر كائنا من كان ...

فالشاعر من يحظى بمكانة لدى ملك ذى شان وإيوان ،

وعرش وصولجان ،

يستمد منه مكانته ،

وتتغنى بما قيل من شعر فيه الركبان ،

وينال الحظوة والغنى لديه ،

يجادل الشعراء ويحاورهم فى بلاطه ، ويفتخر بعطاياه ومنحه ..

أى عليك أن تحقق مكانتك الشعرية كما يجب أن تكون ..

فإذا حققت ذينك الأمرين فأسماء لك ...

عمرو يصغى مليا حتى انتهى عمه من قالته ..

نظر إليه ...

– هذا شيء عجاب ...

أتظنني حدثا غرا؟ أم صبيا يقرزم الشعر ؟ أم تخالنى نكرة فى قومى ؟

والله لو كنت فى مرتبتك ومغرسك الذى أنت فيه ، ثم ماجدتك لمجدتك ، أو طاولتك لطلتك ...

إنى لأحضر الوغى ، وأوفى المغنم ، وأعف عند المسألة ، وأجود بما ملكت ، وأفضل الخطة الصمعاء ، وتطلب منى استجداء الملوك ، وبذل ماء الوجه ، وتسور المناصب، وطمع الجاه والسطوة ؟

وقف عوف فجأة ...

– كفاك يا عمرو ...

– ولكن يبدو أن النصر فى المعركة جعلك تتعالى ، ونعتك « بالبَرك» غرك ، وأوردك موارد التمنع والصلف ...

– قلت كفى !!

تدبر ما قلته ، وليس لك عندى سوى ذاك ..

يخرج عمرو مندفعا وهو يجر أعطافه ..

يتجه إلى حيث مربط الفرس ،

يرحل ،

وقع حوافر الجواد تتردد فى الوادى ...

– أتبكين ؟

– لا أبكى لنفسى ، بل لحالك ، وأعزى نفسى عنك بالتأسى عليك ، ولكن لا حيلة لى فى الأمر ،

الوشم يبدو فى ظاهر اليد التى تخفى دمعات أو شكن على الانحدار ...

– لقد ظللت أياما أدير فى ذهنى ما قاله لى أبوك ، ولست أدرى ما أنا فاعل ؟

القمر يختفى وراء سحب الخريف المتجمعة .

نسمة هواء ريح الصحراء تهب على وجه العاشقين ..

– لا مناص من تنفيذ ما يقول ،

لا يوجد سوى هذا الحل .

فلابد من ترضيته ، فالأمر كله بيده ، وعليك سد جميع الثغرات التى يتعذر بها

- ماهو إلا فوت الزمن وإطالة الأمد ..

أهو علة لمطلب ؟

أم تحقيق أمل وفائدة ؟

- لا أقسرك على فعل ما لا تريد ، ولكنى لا أرى حلا آخر ،

وإنى لصابرة .

- ما دام هذا ما تريدينه ، فإنى مفارق عن قريب فى رحلة قد تطول ...

- أرجو ألا تكون رحلة إرضاء المعتدى ، وفراقا لكبت الشامت ؟

- إنما هو مطلب أبغيه من أجلك ، وسعى أدركه للفوز بك ،

أقبل عليها مودعا فى قبلة طويلة التقطت دمعها المنحدر..

نفس مبهور ...

يد باحثة منقبة تمتد ،

تتبين معالم الثوب والجسد ،

عثرت على النطاق ،

ثوب يشق ،

يد بضة تقوم بالمثل ،

ثوب آخر يشق ..

لقاء قلبين وجسدين ..

هكذا الحب لا يموت ، ولا يفنى ،

العهد على الوفاء وبقاء الصلة ،

إلى الأبد ...

الطراف ممتد ...

الكلاب تهر وترحب بالقادمين ،

يضع الفرسان أسلحتهم ،

يجمع العبيد ما أحضر من الصيد ،

يلطخون صدر الأدهم بدمائه ،

السابق أحمر النحر ،

يقاد إلى حظيرته كأنه يفتخر بما حقق ،

العبيد يجمعون عدة الطراد ،

العرق يتصبب ...

– هلم إلى بالماء يا سعدون !

يتجه العبد بالوعاء إلى الطراف حيث يقف سعد بن مالك .

يمد سعد يديه للاغتسال من وعثاء الطراد ،

خرير الماء مستمر ...

- سمعت أنك لاقيت عوفا ، وأرجو أن تكون تلطفت معه لما يمر به من أزمة من جراء فقد ولده ..

يجفف سعد وجهه ويديه بمنشفة أتت بهاإحدى الجوارى .

- لا أدرى أبتى ، أهو داء عرانى أم سحر ؟ جعل كل صعب يهون في سبيلها ، وإنى لمفارق عن قريب .

يقص عمرو على أبيه ما حدث ...

- إذن فهو مطلب تبغيه ، وعليك أن تحققه ، وبما أنه وعدك بأسماء ، فاذهب يرعاك « عوض » .

يقترب أنس وحرملة من عمرو ..

يتقدم رباح متوكئا على عصاه ..

- ما هذا الذى سمعنا يا عمرو ؟

- أهو سفر لحين ؟

- أم ترى فراق ؟

- بل سفر لحين ، فما أرضى لنفسى العجز عن بلوغ المكارم وتحقيق الآمال ..

- ألم يكفك ما خضته من حرب ؟

وما حققته من نصر فى المعارك ؟

وما بذلته فى سبيل قومك ؟

– إن النصر الأخير أيها القوم فى ميدان العشق والهوى..

وهذا شأن الشاعر ، فهو صاحب همة ..

– وأين أزمعت أيهذا الهمام ؟

– أقترح أن يذهب الى ملك اليمن ، فسيجد عنده بغيته.

– هذاما فكرت فيه ، بل قررت فعله .

عينان دامعتان تقتربان فى جهد جهيد ...

– والله لولا عجزى لذهبت بصحبتك .

– لا عليك ياارباح .

يدلف الجميع إلى الداخل ،

يدخل سفيان بن سعد وابنه ربيعة ..

يحييان ويجلسان .

– أنت الآن يا ربيعة شاعر القبيلة فى غيابى ..

– لا والله يا عمرو ...

أنت شاعرنا وفارسنا مقيما وظاعنا ..

أنت الأكبر ، وأنا الأصغر مازلت ، راوية لك وتلميذا .

همس جانبى ،

جوار يطفن بالشراب ،

- هل أعددت العدة وجهزت الركائب ؟

- هيأت الإبل لعشر ، وتزودت لعشرين ، وألجمت السلاح والمال ...

يدنو حرملة ..

يهمس فى أذن عمرو ،

- لابد من الذهاب إلى الكاهن سطيح بن ربيعة الذئبى عراف اليمامة ، لاستشارته وتقبل طقوسه ..

كذلك عليك بالقربان للآله « عوض » .

- موعدنا لذلك غدا .

الصحراء ممتدة على مدى الطرف ،

الشمس تتوهج فوق الوديان والتلال ،

غراب يصيح على شجرة بأعلى التل ،

خرائب وأطلال ،

بقايا حيوانات ،

عظام متناثرة ،

بيت الكاهن سطيح على مدى النظر ..

- لقد أعددت له ما يريد ..

كلب أعور ينبح

يتقدم الفارسان إلى داخل البيت ،

يعلنان عن قدومهما ،

يبرز خادم الكاهن الأحدب وتابعه شصار ،

مرأى قبيح رث .

- أين النذور ؟

صوت أجش ، ويد ممتدة ..

يخرج عمرو قلادة ذهبية ،

يتحسسها التابع متأملا ،

تلمع عيناه ..

ينظر إليهما بعين عشيتها الشمس ،

- لكما ؟

- بل لأحدنا ،

الفارس عمرو بن سعد بن مالك على أهبة السفر ،

يشير إليهما بالانتظار ..

يعود بعد زمن ،

يدعو عمروا إلى الداخل ، بينما حرملة ينتظر ،،

يد الخادم الخشنة تقود الشاعر ..

غرفة مظلمة إلا من بصيص قليل من الضوء ..

جو مفعم بدخان البخور الصاعد من مبخرة نحاسية مدلاة

على جمر يتوقد

أستار مستدلة داكنة .

مرت فترة قبل أن تعتاد عساه على الظلام ،

تبين ما حوله ،

وسط الحائط المواجه تتدلى جمجمة لذئب على ما يبدو،

حولها نقوش وعقود وحروف معلقة ،

أصنام أسفل الحائط ، مصفوفة تحكي صور حيوانات

يتوسطها صنم لدب ... ، وقد برزت أنيابه

صراخ .

همهمة ودمدمة

برزت امرأة شعثاء

فاغرة فاها ،

شبه عارية ،

تضع الخرز على صدرها الناهد ،

تتشح بوشاح غريب الشكل ،

أطرافها مصبوغة بالحناء .

أقبلت نحو عمرو ، ... بألفاظ وأسجاع غير مفهومة ،

وقفت أمامه شاغرة قليلا ما بين رجليها ،

محتفية ،

حدقت فيه بعينين افعتين ،

تصرخ

تتحسس جسده ،

فوجئ بالموقف ،

توتر

أصابته رعدة ،

تعبث بملابسه ،

لم يستطع فعل شيء ،

من الداخل يصدر صوت أجش ، ولكنه واضح المعالم والنبرات .

- زبراء ! .. أعديه للحضور المقدس ...

لمعت عينا الكاهنة ،

ارتفع صوت شهيقها ونخيرها ،

يدها خبيرة ،،

تتسلل ما بين طيات ملابس عمرو ،،

تصلبت أعضاؤه ،

اليد تزحف ،

تتوقف

يد أخرى تقدم إليه قدحا ..

تردد قليلا ،

لطمته لطمة ،،،، صارخة :

– أيها العبد الذليل أمام الذئب الأعظم ..

صل لروح الاله المقدس ..

اشرب من خمر الحياة ،

واركع لترشف من نبع الحياة ،

واسجد لتقبل خطو الحياة ،

نفذ على مراحل ..

مشدوها ،،

مستمتعا للغاية ، .

تجربة لم يمر بها قبلا ،

أصبح وكأنه شخص آخر ،

لم يعد هناك بقية ،

اللعاب يسيل ،،

دفعته إلى الفراش ،

ضاجعها بعنف وهى تصرخ ..

أفاق من هول الموقف كأنه صحا من نوم عميق ..

ضحكت ..

ضمخت جسده بالعطر ،

وقفت وهى تتمتم بهدوء ..

قام وارتدى ملابسه ..

صاحت :

- سيدى الكاهن الأعظم ، يا روح الذئب الأكبر ..

ضيفك أعد للرحلة ،

الحضور اكتمل ،

ظهر الخادم شصار ..

دفعه بيد إلى حجرة ثالثة ..

لم يزل به تأثير مما شرب ،

بصيص من ضوء الشمس من خلال الحائط ،

لا يكاد يضيء شيئا ،

الستر مسدلة داكنة ،

ضوء أخضر باهت ،

صنم لذئب راقد أمام آخر ضخم للإله « عوْض » يقوم وسط الحجرة ..

بجوار الصنم شيء يتحرك ،

صوت أجش :

- تقدم ...

اتجه ناحية الصوت ، أو الشيء المتحرك ...

فى الضوء الخافت المنبعث من كوة صغيرة بأعلى

الحائط ، تحقق من بعض معالم هذا « الشيء »

جسد مترهل طرى معقود ،

لا عظام إلا فى جمجمته ،

لا ملامح واضحة ،

لا عنق ،

مسخ مغطى بلفائف اللون الأسعف ، تصدر صوتا

كلما تحرك ،

أصابته رعدة ،

أشار إليه المسخ بالاقتراب نحو الفحم المتوهج أمامه

لمح وجها فى صدر

ألقى المسخ شيئا فى النار ،

دخان ينبعث مجأة ذو رائحة عبير،

نمتمة منغمة لتبعث منه

الوجيب والرييب

الحياة والموت

الخضوع ، الركوع ، السجود

العسل الحامض والكهف الغامض

البقعاء والشحناء والدماء

الذئب العاوى والجسد الهاوى

الإله الأكبر ..

كبِرْ ، كبر ، كبر...

تقدم أيها الفارس الراحل ، المطهر ..

سرت قشعريرة فى جسده ..

تأمل العينين المغرورقتين ، والفم الذى يشبه الكهف ...

دخان البخور يكاد يخنقه .

تكلم ! ..

ما شأنك ؟

– رحلة إلى اليمن ..

تحرك الكاهن ،

أشار إليه بالوقوف أمام الصنم الأكبر ،

تناول الكاهن بيد جافية القداح ،

ألقاها ...

المتربص

الآمر ، الناهى ..

أسنان كالحة برزت من خلال ابتسامة شوهاء ..

اليد تربت على رأس عمرو وكتفه .

– الجان الأعلون يقولون سبيلك سالك .

الذئب الأكبر يؤيدك ،

الإلّه الأعظم « عوْض » يمنحك حماه وعونه ،
اذهب .. على بركته ..
باشصار ....
يد أخرى تقود عمروا إلى الخارج ..
ضوء الشمس يعشى عينيه ،
غطاهما بيديه ،
لم يزل به تأثير مما لقى ،
يتجه إليه أخوه ..
– أراك مررت بالرحلة المقدسة ..
– لقد مررت بما لم أتوقعه ...
تجربة أخوضها للمرة الأولى بعد أن كنت أسمع عنها شذرات .
– لم أشأ إخبارك بشيء قبل أن تجرب بنفسك .
سار عمرو مشدوها ، تنتابه انفعالات شتى متناقضة ..
شعر بالخجل ،
طيف أسماء يراوده ،
قارن بين جسد الجارية المملوء شهوة وقسوة وخبرة ..
وبين أسماء ورقتهاوعذوبة حديثها ولين أعطافها ،
التجربة غيرت شعوره نحو المرأة ،

أثارت فيه شيئا كان خامدا ،

اقترب الراكبان من المنزل ..

الأم تستقبل ابنها ،

أفاق إلى نفسه على صوتها .

- لقد جهزت لك كل ما طلبته ..

مضى الليل يفكر ..

لقد أحس بشيء لم يكن في الحسبان ..

هناك جانب من المتعة الحسية يقابل الحب العذرى لأسماء ..

هل يتعارض الجانبان ؟

شعر بالغضب والخجل حينا لأنه خضع لتلك المرأة ، ومكنها من نفسه مع ما يكنه لأسماء من إخلاص ..

التجربة أشعرته بلذة الخضوع للأنثى القاسية من خلال الممارسة ،

يعود فينتابه ندم ،

أهى خيانة ؟

ولكن قد يكون ما حدث زاد من قيمة أسماء لديه ..

بصيص الفجر يتسرب إلى الحجرة ..

عينان لم تعرفا الغمض تتجولان فى جوانب المكان ..

يقوم عمرو من مرقده .

باب يفتح ،

النسيم البارد يصافح الوجه المهموم ..

تجربة ، ألم ، متعة ، رحلة لا يعرف نهايتها ..

ما تزال الشمس في خدرها ؛

يوم الرحيل ،

الجميع يحيطون بعمرو ،

يقضون معه الوقت حتى الغداء ؛

أحاديث عن الرحلة وملك اليمن ، وزمن العودة ؛

هدأت حرارة النهار ؛

الليل يقترب ؛

يتجه عمرو إلى الصنم « عوض » ..

يقف أمامه خاشعا ..

يطلب بركته وتوفيقه ؛

الركائب تزم ؛

يحمل عليها الماء والزاد والسلاح ؛

يتقدم سعدون بناقة عمرو ، يتبعها اثنتان تحملان الماء

والأثقال ..

يقدم لها حب الخمخم لتزود قبل السفر

صوت لإرزام الإبل يختلط بصوت ما وضع لها من طعام جاف .

يتقدم أنس بن سعد ...

- عليك سلوك طريق القوافل بوادى الدواسر حتى نجران حيث يقيم بنو الحارث بن كعب ومذحج ، فيمدونك بالماء والزاد والسلاح إن احتجت ، وطف بكعبتهم « الربة » ..

سرت في بدن عمرو قشعريرة يتبعها خدر عند سماعه « الربة » ،

المعبودة الأنثى

تذكر الكاهنة ..

شعر بسرور ..

- بعد ذلك واصل السير إلى وجهتك ، وعد بنفس الطريق ، إن الثريا قد طلعت ، ولن يظهر سهيل إلا بعد مدة ، ولا تنس أن تأتى بما تستطيع حمله من منسوجات نجران .

وبعض الجلود ..

ينيخ سعدون ناقة عمرو ..

يودع الشاعر أسرته ،

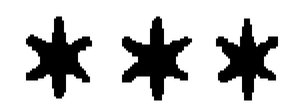
يعتلى ظهر ناقته ،

شرعت الناقة فى السير ،

وراءها الناقتان الأخريان ...

المودعون يتابعون الركب ،

حتى تطويه الفلاة عن الأنظار ...



الفصل الثانى

قرن الغزال

سكون الصحراء

سكون يسبق العاصفة ،

جمادى يقترب ،

تمر الأيام والليالى ،

نجم الشتاء حان منه خفوق .

يسرح عوف بن مالك ببصره نحو الأفق ...

إن الكلاب تنبح ،

وهذا يا أم أسماء ينذر بريح صرصر عاتية .

يمر يوم وبعض يوم ،

الريح العصوف تبدأ ،

تزأر ، تشتد

يطيح صرادها بكل ما فى طريقه ،

البروق تتوالى ،

صبارة البرد تلفح الوجوه وتلوى بالثياب ،

رائحة الرمل الأصفر تزكم الأنوف ،

دقائقه تتخلل العيون والأفواه ،

هيدب السحاب يتدلى ليلامس الأرض ،

ديار عوف بن مالك لا تكاد تصمد أمام سطوة الرياح .

السيل يندفع من الوادى القريب ،

يكتسح البقايا ،

غثاء يمتد أمامه ،

يخرج رب الدار متشبثا بملابسه ،

- أيها الإله الأعظم !!

لقد حل بنا غضبك ،

رحماك .. رحماك ،

يتجه إلى حيث حظيرة الإبل ،

لا يكاد يقوى على السير ،

الإبل يلتصق بعضها ببعض ،

الأفتاء منها تتدافع وترغو ....

كأنها على شفا الهلاك ،

النيب باركة وسطها ،

تنتظر مصيرها المحدق ،

عبد ان يدخلان إلى الحظيرة ،

عيون حماليقها تتسع ،

تزداد الإبل تلاصقا وتدافعا ،

تندفع إلى حيث لا طريق ولا غاية ،

بإشارة من عوف ،

العبدان يجهزان على النيّب ، واحدة تلو الأخرى ،

بتركان الأفتاءوهى قليلة .

الجفان ملئى ،

الجميع يتدافعون للقرى ،

غطت الأتربة والغبار أسطح الآبار ،

ملأت مخازن الطعام ،

اختلطت ذرات الرمل بكل شيء ، حتى الأفواه والأنوف.

بقيت بئر وحيدة لم تجف .

السحب السود الدوانى تقترب من الأرض ،

تلامس ريد الجبل ،

- أيها الإله الأكبر !.

نجنا مما نحن فيه ،

- لابد من ذبح بقية الغنم

راع يتقدم نحو الخباء

- إنها تنفق واحدة وراء الأخرى

- وزع لحمها على من يستحق ،

يعود عوف إلى خبائه مسرعا .

أسماء تدخل ،

تلحق بها أمها ،

أيد باردة مرتعشة

نظرات تلاقى تنم عن مواجهة واقع مؤلم .

حل الجدب .

الشقاء يخيم على عوف وأسرته ،

اضطر إلى بيع بعض العبيد والجوارى ،

ذهب إلى أخويه يطلب عونا .

لم يجد حالهما بأفضل منه ،

فى ليلة كفر النجوم غمامها

أسبل واكف من ديمة

يروى الخمائل تسجامها

البروق تتوالى

لا شيء يسمع سوى عواء الذئاب الساغبة ،

-أراك تبكين !

جارية بقيت تعنى بأسماء ،

تذكى النار للاصطلاء ،

أطفئت نار القرى على الكثبان والأعلام

- ولم لا أبكي وقد وصلت بنا الحال إلى ما ترين

- أبكاء لحال ؟ أم بكاء لتذكر الغائبين ؟

- والله لو كان عمرو حاضر ، وتقدم لخطبتى فى حالنا

هذا ، ما كان أبى يرفض ،
ولكن هذا شأن القدر .
الدهر لا يبقى على حدثانه ،
العبيد يرحلون ،
الإبل تناقصت ،
لم يعد من الزاد إلا النزر اليسير ،
الليالى تمر بطيئة ثقيلة ،
يسمع سعال متقطع حينا ،
وبكاء حينا ...
هم مقيم ورجاء فى غد وخوف من المجهول .
خفت شدة العاصفة نهارا ،
الأمطار تهطل بغزارة ،
الكلاب تنبح ،
شبح مطية يقترب ،
على متنها راكب ،
يعالج عرنين الليل البارد ،
تلف الرياح ثوبه ،
البروق تضىء منه الهامة ،
– من ذا يطرقنا فى مثل هذه الساعة ؟

يتطلع العبد الباقي للخدمة والحراسة إلى هذا السواد المقبل ،

يزجر الكلاب أن يهر عقورها ،

يقترب الشبح ،

ينيخ ناقته ، يترجل ،

- عم مساء ..

أليست هذه دار البرك عوف بن مالك البكرى ؟

- بلى يا رجل ، من السائل ؟

- الدهاس بن عاتق من بنى مراد ، بطن من عطيف ، والشهير بقرن الغزال .

- وما حاجتك ؟

-أريد لقاء عوف لأمر .

يتقدم الضيف فى حين يدخل العبد إلى الخباء ،

الجارية تخبر عوفا .

- ماذا يريد يا ترى ؟

أطالب حاجة ؟

أم ربيئة يستطلع ؟

- لا أدرى يا عوف .

- ولكن ماذا نقريه والحال كما ترين ؟

- نضيفه ، ولا نفحش عليه ،

- لا تقولى إن المكان مضيق ،

اعقرى أفضل ناقتيك ، وأعدى للضيف عشاء ،

يخرج عوف إلى الضيف ويدعوه .

- أهلا ومرحبا ، ما الأمر ؟

- لقد جئتك بعد أن سمعت عن شهرتك وبلائك ،

سألت عن البرك ، فد لونى عليك ،

لقد رحلت عن قومى بنى مراد لحاجة قضيتها ،

وهأنذا عائد إليهم .

- ونعم القوم ! ..

- وعلمت بمكانتك فى قومك عند مرورى بديار سعد
ابن مالك ،

وهم يتحدثون عنك ، وعن ابنتك أسماء ،

- وما الذى قالوه يا مرادى ؟؟

- لا شيءسوى حسن الأحدوثة والذكر الطيب .

العبدان يوفدان عن الناقة ،

يطير عنها الجلد وهى تفوق ،

جر ضرعها وسنامها ،

شبت أنؤر ،

ارتفع دخان ،

مد السماط ،

– وماذا تبغى ؟

– جئتك خاطبا أسماء .

فنحن أكفاؤكم ونظراؤكم ،

فإن زوجتمونا ...

فقد أصبنا رغبة ، وكنا لصهركم حامدين ،

وإن رددتمونا لعلة نعرفها

رجعنا عاذرين .

سكون لفترة .

– لقد فاجأتنى !

ما كنت أتوقع أمراكهذا ، فانظرنى إلى الغد ريثما أتدبر

الأمر ، وقم الآن إلى العشاء .

بات اللحم للضيف موهنا ،

شواء سمين ، زاهق ،

قدم الغبرق ،

بات له دون القر ،

لحاف ومصقول الكساء رقيق ،

من خلال فرجة فى الستر فتحتها الرياح ،

المرادى يراقب المزن السارية ..

- حقا والله !

كل كريم يتقى الذم بالقرى ،

وللخير بين الصالحين طريق ،

فما ضاقت بلاد بأهلها ،

ولكن أخلاق الرجال تضيق ،

فعسى ألا تضيق أخلاق البرك ، فيردنى خائبا .

- ما رأيك يا أم أسماء ؟

- الرأى رأيك يا عوف ...

لكنك واعدت عمرو بن سعد ...

- أعلم ذلك ..

أراك ترين ما نحن فيه من عوز وضنك ، وزمان صعب شديد ، وإن صداقها لينقذنا مما نحن فيه .

- إذن فليكن على مائة من الإبل .

أسماء تبكى وهى تنصت للحوار .

- تعالى يا بنيتى !

أجدك ترين مانحن فيه من سوء حال ، وإن ظل الأمر هكذا ، فالمصير كما تعلمين ،

والحال يخالف ما كنا عليه عندما ...

- أجل ، إنى معكما ، أسمع وأرى ..

- وإنى أقبل صاغرا مضطرا لهذا الأمر يا بنتى !

إنسى الماضى ، فأمامك الآن حياة جديدة .

الفراش كأنه شوك القتاد ،

بأى أرض حللت يا عمرو ؟

ليتك لا تتركنى هكذا .

متى يكون القفول ؟

وكيف يكون حالنا وقتها ؟

وأخذ الكرى بمعاقد أجفانها بعد برهة ..

قدم اللبن عند الصباح للضيف .

- إن صداق ابنتى مائة ناقة يا مرادى !

- إنها لكثير ، وأنت أدرى بالحال وبالأمر .

- هذا مطلبى لكى تكون أسماء لك .

- إذن فامهلنى وقتا ريثما آتيك بها .

يخرج المرادى متجها إلى قبيلته .

بكاء ونشيج ...

- ماذا يكون من أمر عمرو لو عاد ؟

- لا شىء يا بنيتى ،

فقد زوجناك مضطرين، تجنبا للشقاء والفاقة .

– أتظنين هذا سهلا عليه ؟

– عليه أن يواجه الأمر الواقع .

– ألم تفكرى فى مصيرى أنا ؟

– أنا أعلم أنك تعشقينه ، ولكن ، ألست تزين ما نحن فيه ؟

إن كل شىء يطول به العهد ينسى يا بنيتى ،

ومن غاب عن العين ،

فقد غاب عن القلب ،

– والله لن أنساه ، ولو مرت أيام العمر كله .

تمر الأيام بطيئة ثقيلة ...

أأتعجل الزمن لعودة عمرو ؟

أم أود إبطاءه لتأخير قرن الغزال ؟

لست أدرى ..

الكلاب تنبح خارج الوادى ،

إبل تقترب ،

الراعى يسوقها ، ثم ينيخها

لقد عاد قرن الغزال ...

يهش له عوف ،

يتفق الجميع على إقامة حفل الزفاف بناحية سلمان

حيث صنم الإله « المحرق » .

يتجه الأب وقرن الغزال إلى الحانة ...

تحايا الرواد تختلط بقراع الكئوس ،

أنس وسفيان وحرملة أبناء سعد بن مالك يتجهون حيث

يجلس عوف بن مالك والمرادى يعبان من كأسيهما .

- عما مساء ..

ما هذا الذى سمعنا ؟ أزواج هو أم بيع ؟

يلحق بالأشقاء ربيعة بن سفيان ..

- اتركونى وشأنى ، فما بى حاجة إلى نصيحة أو زجر ،

لقد علمتم ما كان من أمرى وحالى ،

وما أظنكم تجدون البديل أو العون ، فلم أر منكم إلا

الكلام الأجوف ، فهلاساعدتمونى فى محنتى ، بدلا

من التوبيخ والتقريع .

- كيف يكون ذلك ، وحالنا حالك .

- كان عليك أن تتذرع بالصبر ، فلربما يعود عمرو ،

وقد وعدته ، ولا يصح أن تخلف الوعد

- وعدته فى زمن ، والآن حل زمن ،

والحال حويلة ، والبحر دجيلة .

وإن الأمر قضى ، وهذا زوج أسماء ...

- نعرفه ..

لقد قضى عندنا وقتا قبل أن يقصدك .

- وماذا يكون من شأن عمرو لو عاد وعلم بالأمر ؟

- والله هذا شأنه ، فما لى حيلة ، وعليكم باقناعه ، وبيان جلية الموقف .

- هذا مالا نستطيعه بحال .

المرادى يضع كأسه بعد أن نهل نهلة ..

- على رسلكم أيها القوم !

فقد كنتم نعم الأكرمين ، ولن أكون ألئمكم ، فلم أتصور الأمر هكذا .

وما كان ليس لى به علم ، فلا تلومونى .

- ما مقصدك ؟ لقد اتفقنا على كل شيء ، وأحضرت الصداق ، وأعطيتك ابنتى راضيا ، ولا سبيل إلى التراجع ..

وجم الجميع ، ولم ينبسوا .

وقف عوف بن مالك صائحا .

- أيها الرجال !

أنتم مدعوون طرا لحفل زفاف ابنتى ..

وراء هضبة تقع غربى مضارب قبيلة بكر بن وائل

بمنطقة سلمان .

يقوم صنم « المحرق » ، إلّه بكر وسائر ربيعة .

عند هبوط الشمس للمغيب ،

يمهد آل الأسود العجليون سدنة الصنم الساحة أمامه .

يبدأ حفل الزفاف ،

تقام نيران ضخمة أمام الصنم ،

يرتفع دخانها ،

يقف حول الصنم سدنته فى مسوح مصبوغة حمر وصفر ،

يرفعون بأيديهم المشاعل ،

يقدم شيوخ القبيلة وفتوها ، وسائر بطونها وأفخاذها فى صفوف متراصة ،

يلوحون بالسيوف ، يهزونها فى الهواء ،

يصيحون بالتلبية صيحات تشق عنان السماء .

لبيك اللهم لبيك ..

لبيك حقا حقا ...

تعبدا ورقا ...

يقفون حول النار وهم يرددون ...

تقبل نساء القبائل فى جمع غفير ،

يحملن بأيديهن الدفوف ،
ينقرن عليها ،
يطلقن الصيحات والأغانى فى ترتيل متتابع ،
تتبعهن أخريات ،
يعزفن بالمزامير والأعواد والصنوج ،
يهزجن بالأناشيد .
يتحلق الجميع حول الصنم والنيران ،
تبرز خلف الجمع الحاشد عذارى القبيلة مرسلات الشعور ،
يرتدين النطق والملاحف ذوات الذيول الملونة ،
يندفعن وهن يغنين إلى حيث الصنم المقام ،
يكشفن عن صدورهن ،
داعيات بأن يمنحهن الخصوبة والأزواج ،
يبدأن فى الطواف راكضات حوله مغنيات مرتجزات ،
يشرعن بعد ذلك فى التمسح بالصنم ،
يتحسسنه بأجسادهن . وأيدهن ،
يكررن الطواف والغناء .
تفرش النمارق والزرابى والأنماط ،
يعد الطعام من الهدى والذبائح ،

يقام السماط .

وسط الضجيج والغناء ،

تقبل العروس فى هودجها المتأرجح ،

تحف بالهودج الستر ورقيق الكلالى ، وقد زخرف وزين ،

يسير حوله ماشطات العروس وأهل بيتها وجواريها وخدمها ،

وراءهم صبايا القبيلة فى ثيابهن الفضفاضة الملونة ...

يقف البعير ، يناخ ،

تترجل العروس التى ترفل فى الدمقس والحرير ،

يقبل زوجها ووراءه أبوها ،

يأخذ بيدها ،

يجلسها على إحدى النمارق وسط الصياح والتهليل .

تتقدم راقصة شبه عارية ،

تقعد عوادة ، يقف حولها أخريات من الفتيات بمزامير .

يبدأ الرقص والغناء والعزف .

يتحلق الجميع حول العروس المزينة وقد صبغت يداها ورجلاها بصبغ الحناء والوشم .

بعد انتهاء الغناء يذهب الجميع إلى حيث يمد السماط

تتقدم العروس مع زوجها إلى حيث الصنم ،

تنحنى راكعة أمامه طالبة بركته وتوفيقه ،

يسود سكون ..

يقبل الكاهن الأعظم لإتمام طقوس الزواج .

بعد انتهاء المراسم ،

تتجه العروس مع زوجها وسط الصياح والتهليل إلى مركب الزوج ،

الذى يتهادى رقيقا .. إلى حيث مقرهما .

الفجر يرسل أضواءه الفضية ،

تطغى عليها أشعة الشمس الذهبية ،

تجهز الركائب والحمولة ،

تودع أسماء أبويها وأهلها ،

– اعتن بها يادهاس !

– هى فى عينى أيها القوم .

تتحرك القافلة ...

يظل الأبوان يرقبانها حتى تغيب عن نواظرهم وسط الدموع .

مجلس قبيلة بكر بن وائل مجتمع ،

الوجوم يسود أوجه الجالسين ،

يقبل عوف البرك ..

يترجل ..

— قدم الطعام يا غلام للفرس .

يدلف الى المجلس ،

يتخذ مكانا قصيا لجلوسه ،

— حلت مشكلة وبقيت أخرى .

— وما المشكلة الأخرى يا سعد ؟

— موقفنا من عمرو المرقش عند عودته ،

بم نجابهه ؟ وبم نقنعه إذاأخبرناه بحقيقة الأمر ؟

إن القوم يأتمرون بك إذن ،

ينهض عوف من مكانه ليغادر المجلس .

— لا تتركنا هكذا .

امكث لتقرر فأنت البادى .

— لا شيء أستطيع فعله ، والخيار لكم ،

— الأفضل أن نواجهه بالأمر الواقع .،

— إن قصدنى أبين له ما حل بنا من أزمة ،

سيلتمس لى العذر .

— لن يعذر أحدا قط ،

إنه أخى ، وأعلمه حق العلم .

يصب حرملة كأسا له

- لا مناص من مواجهته بالحقيقة ،

فسيدركها عاجلا أم آجلا .

ألا يشكل ذلك صدمة قاسية له ؟

- يمكن إخباره على مراحل .

- كيف ؟

- ندعى أنها ماتت ، وبعد فترة سينساها ويتزوج غيرها...

- ليس الأمر بهذه السهولة .

- أترانا نكذب عليه ونخدعه ، والله لا أقوم بها قط .

- ليس فى الأمر خداع ، بل تحايل لصالحه ، وتجنب الصدمة .

- لقد نسيتم شيئا ... القبر !

إن سأل عنه فماذا يكون ردنا ؟

- يمكن اصطناع قبر !

- قد نصطنع هذا القبر ، ثم يميل هيام الرمل ، أو تحركه الرياح أو السيول ، أو تعبث به ضباع الفلاة ، ويكتشف عمرو أن القبر خال ، فماذا يكون موقفنا عندئذ ؟

— هل لديك حل آخر ؟

— لاتعقد الأمور ، وإنك لتتصور مالا يحدث .

— انى أحسب حساب كل شىء حتى لا ينقلب الأمر علينا .

— قبل أن يصل الأمر إلى هذا الحد يكون قد علم بالحقيقة .

— هناك حل آخر ،

فكما اصطنعنا قبرا ، نصطنع جثة !

الجميع ينظرون الى المتحدث بدهشة .

— ليس جثة إنسى ، بل تذبح كبشا ونطعمه ، ونلف عظامه فى ملحفة ، فإن بدا شىء من العظم بفعل ريح ونحوه ، دل ذلك على أنه قبر حقيقى .

صمت ووجوم ،

همهمة ،

مشاورات وأحاديث جانبية ،

يقف سعد بن مالك :

— أرى هذا حلا معقولا .. الآن .

ربيعة بن سفيان يشرف على ذبح الكبش .

شخيب ودماء ،

العبيد يعدون اللحم ،

- عليكم بجمع العظام بعد الطعام .

تقام مأدبة محدودة ،

يقدم السماط ،

يصيب منه البعض ،

الآخرون عازفون ،

كل يتمنى أن تمر الأمور على ما يرام لها .

تجمع العظام وتلف فى ملحفة .

يتجه عمرو بن مالك إلى حيث الموضع المختار ، على

مبعدة من ديار عوف بن مالك ،

تدفن الملحفة ، يهال عليها التراب وفوقها الرمس ،

ينصب شاهد من حجر علامة .

تتوالى أيام الصيف فى تثاقل ..

تشتد حمارة القيظ ،

تفىء أم عمرو إلى ظل نخلة ،

تغزل بمغزلها بجوار عنيزات لها ،

تسأم جلستها ،

تتجه ناحية الرحى لتجمع ما فوق ثفالها من طحين .

- ألم تكفنا آلام الحرب حتى نعانى آلام الفراق ...

- بالله عليك يا أم عمرو ، ألا جانبت هذا الحديث ،
فإنه مثير للشجن ، فللشباب طموحه ونزواته ،
سيعود عمرو سالما غانما .
صلى على بركة الآلهة .
أسماء ! أهكذا يكون موقفك ؟
ألم وضيق يبدوان على وجه الأم .
ينبح الكلب ثم يقعى ،
يندفع ناحية طرف الجبل المجاور ،
خيال راكب طارق من بعيد ،
ثلاثة أشباح تطوى الفلاة
يقترب أولها من مضارب القبيلة ،
وراءه آخران محملان ،
الشبح الأول ، راكب على ناقة ، يبدو عليه الضنى ،
أشعث أغبر ،
الآخران ناقتان يغطيهما وعثاء السفر بما يحملان ...
- عدمنا بصرنا إن لم يكن هذا عمروا .
تلقى الأم بما فى يديها ،
تعدو إلى حيث الركب ،
وراءها كلاب الحى نابحة ،

تصرخ :

- إنه لعمرو حقا !

يهرع الجميع إلى خارج المنازل ،

يقترب الركب ،

تقف الأم ملوحة بيديها ،

يرد عليها الشبح المتقدم ..

يزداد عدد المستقبلين ،

الإبل ترزم عند إناختها ،

تفتح فمها تعبا واحتجاجا ،

يترجل عمرو ..

سعدون يتقدم ليأخذ بخطام الناقة ،

يحتضن عمرو أمه ويحيي مستقبليه من أسرته وقبيلته ،

يدلف عمرو إلى داخل الخباء حيث يستقبله أبوه ،

- حمدا لعوض والآلهة على وصولك سالما غانما .

نار الإياب موقدة خارج الديار .

- لا شك أنها كانت رحلة شاقة ..

- دعه الآن يستريح ،

الحديث عن الرحلة فيما بعد .

يدخل عبد بوعاء الحليب ،

عمرو يهب منه ،

تقدم جارية بعض التمر ،

يجلس عمرو واضعا سلاحه بجواره

— لشد ما أوحشتنى هذه الديار ، وهذا الطعام ..

ما أجمل المصطاف والمتربع فيها !!

لا يعد لها شيء ..

أنهاية رحلة سعى ؟

أم نهاية آلام ومتاعب ؟

أم بداية عناء لا تعلم نهايته ؟

ولكن !

مالى أرى فى الحى شيئا لست أعهده !

يتوافد الجميع ...

أخوة عمرو وأبوه وعماه ، ثم سائر أفراد القبيلة ...

يتساءل عما حل بالأهل ، فيخبر بجلية الأمر .

— إذن أرى أن الجدب آخذ فى الزوال ،

ما كنت أظن هذا يحدث فى غيابى .

— إنه ما أرادته الآلهة ، ونحمدها على نجاتنا سالمين .

يتقدم عمرو بن مالك ..

يجلس بجوار ابن أخيه .

- لعل التوفيق كان حليفا فى رحلتك ؟

- لقد كان ملك اليمن كريما معطاء ،

استقبلنى بالهدايا والألطاف .

حبانى بالكثير ،

سألنى عن الحرب ، وما تمخضت عنه ،

وذكر قبائل ربيعة ، ومواقفها البطولية .

- إن ربيعة تعد للخروج من أرض اليمن .

- ما كنت أتصور حدوث هذا الآن ..

- لقد ضاقت بنا السبل ، وعلينا السعى فى الأرض .

صمت ...

يتجه عمرو ببصره نحو عمه عوف بن مالك ،

يلاحظ الأخير ذلك ،

يسر شيئا إلى من بجواره ،

يقف ،

يستأذن فى الخروج .

أيقبل الحديث الآن ؟

أترى يفكر فيما أفكر فيه ؟

لم يبد منه تشجيع على مناقشة الأمر .

- لم العجلة يا عم ؟،

إن لى معك حديثا وشأنا ،

يخرج عوف غير مجيب ،

يتبعه أخوه سعد .

— لقد حققت له الكثير مما طلب ،

لم يبق إلا أن أتقدم لأسماء ..

فما رأيكم ؟

وجوم قليل .

— ألا تشعر بالجوع ؟

لا شك أنك كنت تتبلغ بالقليل خلال سفرك ، وقد أعددنا شواءً لعشائك .

— وأين ما أتيت به من هدايا وطرائف ؟

ألن تريناها ؟

نظر عمرو إلى أخيه حرملة فأنس ، ثم جال ببصره بين سائر الجلوس .

— لا أشعر بجوع الآن ؟ وأراكم تغيرون وجهة الحديث أهناك مالا أعلمه ؟

أأسماء بخير ؟

— ولماذا تظن غير ذلك ؟

— إن قلبى ليحدثنى أن فى الأمر سرا ، وإنكم لتخفون شيئا .

يتجنب عمى عوف مواجهتى ، ويسرع بالخروج ،
أرى فى النظرات والرد شيئا مريبا ، فأصدقونى القول ،
أهى أسماء ؟
نظرات متناقلة ...
— أجل ، هى أسماء ،
فما كنا نود أن نخبرك بشىء عنها ريثما تستريح من
عناء السفر .
— قل لى وأسرع ،
ماذا حدث لها ؟
أهى مريضة ؟
— لقد ماتت أسماء ..
صمت يخيم .
يقف عمرو مشدوها ،
حملاق العين يتسع ،
نظرات متناقلة بين وجوه الحاضرين الواجمين الذين
يبدءون فى الخروج واحدا وراء الآخر ،
عقدت المفاجأة لسانه ،
لم ينبس .
— هذه إرادة الآلهة ، ولا راد لإرادتها .

- ماتت ! متى ؟ وكيف ؟

يمسك بتلابيب أخيه .

- تمالك نفسك أيها الفارس .

- كيف ؟ أخبرونى ! كيف ؟

- لقد أصابها مرض عضال ،

لا شفاء منه ،

أتلفها ،

ودفنت عند السفح .

تمر هنيهة ...

يخرج عمرو ساكنا ، ثم ينخرط فى البكاء ...

تتلاقى وراءة نظرات الجميع .

يؤدى عمرو فى اليوم التالى واجب العزاء لعمه وأهله .

يسأل عن القبر فيما بعد ، فيدل عليه .

الليل شامل ،

عواء الذئب يتردد من بعيد ،

عينان تحملقان فى الظلام ،

تزقاء البوم حول المكان ،

كما تضرب بعد الهدوء النواقس ،

صرخات حيوان جائع ،

وآخر يفترس ،

نباح كلاب متقطع ،

يقوم عمرو من مضجعه ،

هواء الليل منعش بالخارج ،

يجلس على حجر غير بعيد ،

يسرح ببصره إلى حيث القمر السارى ،

الأنجام تومض ،

الربيع يقترب ...

أين ربيعك يا أسماء ؟

أين الشعر الدجوجى الساحر ؟

أين الابتسامة الآسرة ؟

الهم مقيم والحزن مخيم ،

طيف لا يكاد يبين يمر أمامه ،

جعل يتحرك على الرمال ،

ثم يسقط فى جحره ،

إيراق مستمر ،

نسيم الليل يصافح وجهه ،

يقوم ،

يعود إلى فراشه ،

لا يغمض له جفن حتى الفجر ،

تمر الليالى بطيئة ثقيلة ،

بين الصيد والشعر ،

يعود القبر كلما واتته الفرصة ،

لا يستطيع المكوث طويلا أمامه ،

فى ليلة وجد الضباع تحوم حوله ،

أبعدها ...

الحجارة الثقيلة تمنع النبش ،

يقف ،

يتذكر ،

يتألم ،

يعود أدراجه باكيا ،

أصابة الهزال ،

يذهب إلى الحانة من حين إلى حين ،

هل تفلح الخمر فى إزالة الحزن والذكرى ؟

القينات يرقصن ،

يخلبن اللب ،

حسان الوجوه ، لينات السوالف ، دقاق الخصور .

يداعبنه ،

يلمسنه ،

تذكر موقف الكاهنة ،

عاودته نشوة الخضوع ،

لعلها تذهب الحزن والذكرى الأليمة ،

يعب مافى الكأس ،

يعود إلى داره في بهيم الليل ،

تتمشى الخمر فى مفاصله ،

كتمشى البرء فى السقم .

يقف هينهه أمام صنم الإله « عوض » ،

يدلف إلى إحدى الإماء النائمات ،

يوقظها ،

يدعوها إلى فراشه ،

يطلب منها أن تفعل مثلما فعلت الكاهنة ،

ترددت أولا ، ثم طاوعته ، بل بادلته بالمثل ،

رشفت رحيقه كله ،

قبلته ،

ألقت رأسها بين يديه وساقيه ،

ضاجعها بنشوه غامرة .

الاستلقاء على الظهر يريح الجسد ،

أعادا الكرة ،

هل اللقاء هذا خيانة للذكرى ؟

أم علاج من الذكرى ؟

رغاء بعير يصحو ،

الإماء يطعمن الإبل والخيل ،

العبيد يحضرون عدة الصيد ،

المدربون يأتون بالصقور والكلاب .

– ألا تشاركنا الطراد اليوم ؟

– مابى رغبة فإنى منهوك القوى

الشمس تنشر أشعتها ...

الحياة تدب ،

صبية يصدرون ضجيجا حول مضارب القبيلة .

نساء يحملن أوعية ،

يتجهن إلى حيث نبع المياه ،

الخدم يراعون الإبل ،

ينظفون حظائرها .

يدلف ربيعة بن سفيان إلى منزل عمه عمرو ،

يطلب شرابا .

– أراك تخلفت عن الصيد اليوم .

— هناك خاطر يدور فى ذهنى يحتاج إلى هدوء ،
أبيات قضيت الليل فى نظمها ،
إن رحيل أسماء جعل الحياة طللا يا ربيعة ، وفى الموت
من بعد الرحيل رحيل ،
هل تعرف الدار عفا رسمها ؟
إلا الأثافى ومبنى الخيم ،
أعرفها دارا لأسماء ،
فالدمع على الخدين ،
سح سجم ،
أمست خلاء ،
بعد سكانها مقفرة ،
ما إن بها من إرم ،
إلا من العين ترعى بها ،
كالفارسيين ،
مشوا فى الكمم ،
بعد جميع قد أراهم بها ...
لهم قباب ،
وعليها نعم ،
فهل تسلى حبها بازل ،

ما إن تسلى حبها من أمم .

دمع ينحدر ..

ربيعة يردد الأبيات حتى يستظهرها تماما .

- هناك أمور ما تزال تحيرنى ،

إنكم تتجنبون ذكر أسماء ، فكلما أوردت شيئا عنها ،

ابتعدتم وأشحتم بوجوهكم ،

هناك شعور يراودنى بأن فى الأمر ما يريب ..

المرقش الأصغر يصمت قليلا :

- ليس هناك من شىء مريب ، ولكن حب أسماء

تمكن من قلبك ، وذكراها لم تبرحك ،

وتظن الناس حولك كمثل حالك ، وهكذا دأب

العشاق، يرون الخلق حولهم عشاقا ، ولا يبغون سوى

الحديث عن محبوباتهم دوما ، وليس الأمر كما ترى .

تقدم الجارية الشراب إلى المرقشين .

ينظر عمرو إلى الجارية ،

الوجه الآخر ....

- انى أحاول النسيان بغشيان هؤلاء .

ألابان جيرانى ولست بعائف ،

أدان بهم صرف النوى ؟

أم مخالفى ؟
وفى الحى أبكار سبين فؤاده ،
علالة ما زودن ،
والحب شاعفى ،
دقاق الخصور ،
لم تعفر قرونها لشجو ،
ولم يحضرن حمى المزالف ،
نواعم ،
أبكار ،
سرائر ،
بدّن ،
حسان الوجوه ،
لينات السوالف ،
يهدلن فى الآذان من كل مذهب ،
له ربذ يعيابه كل واصف ،
إذا ظعن الحى الجميع ،
اجتنبتهم ،
مكان النديم ،
للنجى المساعف ،

فصرت شقيا ،

لا يبالين غيه ،

يعوجن من أعناقها ،

بالمواقف ،

نشرن حديثا آنسا ،

فوضعنه خفيضا ،

فلا يلقى به كل طائف ،

فلما تبنى الحى جئن إليهم ،

فكان النزول ،

فى جحور النواصف ،

يصب عمرو الشراب فى جوفه .

- أراك تسوف .

- الذكرى تلاحقنى والطيف يراودنى ، وسورة الخمر تسكن سورة العاطفة .

- أرجو ألا يصل الأمر إلى إنفاق الطريف والمتلد .

يقوم ربيعة للانصراف وهو يردد أبيات عمه ...

يخرج عمرو فى إثره والكأس بيده .

يتجه إلى حيث حظيرة الإبل ،

يراقب الخدم عن كثب ،

تتجول حوله بعض الماعز والأغنام ،
ثغاء لا ينقطع ،
ينظر إليها ،
يرنو إلى ابنى أخيه سفيان ،وهما يلهوان على مقربة .
- أليس هذا سهمك يا أسماء ؟
هامة تبدو أمامه
تختطفه ،
تعدو ،
يعدو وراءها ،
يسقط ،
تسقط بجواره ،
تتلاقى أنفاسهما اللاهثة ،
الذكرى تغوص فى القلب ،
تحتدم ،
التقدم لأبيها ،
الرفض والتعلل ،
رحلة اليمن الشاقة ،
شىء أصابه فى ظهره ..
أفاق ،

اهتزت يده ،

انسكبت الخمر الباقية ،

وضع كأسه على الأرض ،

ما هذا الذى أصابنى ؟،

أهو من الذكرى أم من الواقع ؟

نظر خلفه ..

وجد كعبا من العظم ملقى وراءه ،

تناوله ،

هرول نحوه ابنا أخيه ،

يعتذران ..

— لأيكما هذا الكعب ؟

— لى ...

— بل لى أنا ..

يتشاحنان ، ما دين أيديهما نحو عمرو .

يتريث ،

يحاول تهدئتهما ،

ينظر إلى أحدهما :

— من أين لك هذا الكعب ؟

— أعطانيه أبى .

— انه لكاذب ، فأنا من أتى به .

— لا تصدقه !

— أيكما أصدق إذن ؟

— لقد جئت به من الكبش المدفون هناك .

الصبى يشير بيده ، ويمسح بالأخرى وجهه المتورب .

— أى كبش ؟ إنه يخادع .

— أين هذا الكبش المدفون الذى تزعم ؟

— يتقدم الصبى مشيرا إلى حيث « قبر » أسماء .

ينظر عمرو إليه بدهشة ...

— أى قبر ؟ وأى كبش ؟

إن ما تشير إليه هو قبر ...

لم يقو على نطق سائر العبارة ..

قام ،

أخذ بيد الصبى ..

— أرنى أين هذا الحيوان المدفون إذن ؟

يقتربان من قبر « أسماء » ..

يراقبهما الصبى الآخر ،

لم يتحرك ،

يشير الصبى إلى القبر ؛

– هو ذا ..

– كيف ؟ إنه قبر امرأة ..

– ليس به امرأة يا عم ، إنه ...

لم ينتظر عمرو سماع بقية الجملة ..

راودته الظنون ،

دق قلبه بعنف ،

ما هذا الذى يسمع ؟

أيصدق الصبى ؟

أم أنه لا يدرى شيئا ؟

يتفرس عمرو فى جوانب القبر .

لاحظ أنه نبش فى جانب منه حيث بدت بعض العظام .

الصبى يمد يده ليستخرج عظمة ، دليلا على ما يقول...

~~يمنعه عمرو بيد مرتجفة واجلة .~~

الشك خالجه ،

يدع الصبى الذى يشرع فى إزالة التراب والحجارة بيديه تظهر بعض أجزاء الهيكل المدفون .

يد عمرو تمتد لتستكمل الحفر ، فيبدو ظلف الحيوان ..

– ها هو الكبش يا عم ، حيث أتيت بهذا الكعب ،

أتصدقنى إذن ؟

همس عمرو ساهماً ، ناظرا إلى القبر ..

- نعم ، أصدقك .

نظر إلى الكعب بيده متفرسا ..

ألقاه

خطفه أحد الصبيين ...

عدا ...

ووراءه أخوه صائحا ،،،

وقف عمرو لا يعى ،

ينظر إلى القبر والظلف مرة أخرى ،

لا يكاد يصدق ..

يستمر فى إزالة أجزاء من القبر ،

تكشفت له رفات أخرى ،

ظهرت جمجمة الكبش وقرناه ،

تبدت له الحقيقة واضحة ،

ليس هذا قبر أسماء .

إذن فأين قبرها ؟

أم ليس لها قبر ؟

ربما لم تمت ،

أو ماتت بعيداء،

أو أكلتهاوحوش الفلاة ،

ولماذا خدع ؟

الهواجس المتناقصة تتناوبه ،

صراع بين السرور والألم ،

لا يدرى أيهما المسيطر ،

لكن الخداع أشد الأمور إيلاما ،

وماذا وراء هذا الخداع من سر ؟

أصابة ضيق ..

ثارت حميته ..

لابد من حل هذه الألغاز .

اتجه نحو مقامه ،

دلف إلى المنزل مسرعا ،

اصطدم بأحد العبيد الخدم ،

يمسك بتلابيبه :

- قل لى أين قبر أسماء ؟

العبد لا ينبس ، ينظر لعمرو مدهوشا ،

يتركه ،

يتجه الى أمه الجالسة وراء مغزلها خلف المنزل ،

يكرر السؤال ،

الأم تنظر إليه بدهشة وحيرة :

- ألم يدلوك عليه ؟

- بلى ، ولكن دلونى على قبر كبش !

شحب وجه الأم ...

إن الحقيقة على وشك الانجلاء ..

لم تستطع البوح بها ..

- ربما دفنوها فى مكان آخر ،

انتظر ، ريثما يعود أبوك ومن معه فيخبرونك .

- لن أنتظر أحدا ..

سأذهب إليهم ،

يعدو إلى فرسه ،

يسرجها ويمتطيها ،

يتجه بها مسرعا ناحية الخلاء .

الأم تبكى ...

خيال يتقدم من بعيد ،

أهو شبح صياد ؟

أم زائر طارق ؟

- إنه عمرو !

- يا ترى ، ما الذى أتى به الساعة ؟

لقد عرضت عليه مشاركتنا فأبى .

- أراه جاء لأمر غير الصيد !

لم تخف غضون وجه سعد بن مالك شحوبا واصفرارا

ظهرا عليه .

يتجمع الركب والخدم ،

كأنهم يتنبئون بما سيحدث ؛

يقف العبيد حيث هم يحملون الصيد ،

يترجل الفارس ،

يتقدم نحو أبيه حثيث الخطو .

- أراك جئت للمشاركة ، وقد أوشكنا على القفول ..

- لم آت للمشاركة ، ولكن لا ستيضاح أمر ،

أين قبر أسماء ؟

بهت الجميع ووجموا .

لا يكاد سعد بن مالك يفيق من مفاجأة السؤال ،

لا يدرى بم يجيب ،

- ذاك الذى ...

- ليس بقبرها أيها القوم !

إنه قبر كبش !!

- ومن أين لك معرفة ذلك ؟

- إذن فأنت تعلم .

سرد عمرو ما حدث لأبيه ..

الأب ينصت مدهوشا مبهوتا .

لم يستطع الاستمرار فى مداراة الموقف بعدما حدث ،

نظر إلى عمرو مليا ،

ترجل عن فرسه ،

وضع يده على كتف ابنه :

- ليس هناك من قبر لأسماء ، لأنها لم تمت !

- لم يصدق عمرو أذنيه ، كأن على أذنيه وقرا .

أهى حقيقه أم خيال ؟

أما يزال الخداع مستمرا ؟

أم أن الصدق يقال هذه المرة ؟

عاوده الصراع بين السرور والألم ثانية ،

لن يستطيع تحمل كل هذه المفاجآت.

أليس للأمر نهاية ؟

- هيا للعودة ،وهناك أخبرك بحقيقة الأمر .

هل ائتمر القوم به ، أم لصالحه ؟

صراع نفسى مستمر .

أأسماء حية ترزق ؟
لا أكاد أصدق !
هى حية ، نعم ..
أم تراها ماتت بالنسبة لى فعلا ؟
أكان الموت يكون أفضل بعد أن وطنت نفسى عليه ؟
ولكن كيف يموت من فى القلب سكناه ؟
كيف أصدق أنها بين أحضان آخر؟
انى أكرهها ، أجل أكرهها ..
لكن ماذنبها ؟
كان يجب أن ترفض ..
ولكن كيف ذلك ، وحال أهلها كما قيل ؟
كان يمكن لأبيها أن ينتظر .
أجل ، ينتظر ، وحتما سأعود يوما ،
ألم يثق فى وعدى له ؟
ألم يثق فى حضورى وعودتى سالماً ؟
التبعة إذن تقع عليه .
إنى لم أتحمل كل هذه المشاق وآلام السفر والرحلة ،
لتكون المفاجأة خدعة وخيانة ؟
- إلى أين أنت عازم ؟

لم يسمع سعد بن مالك ردا

الفارس يقفز فوق ظهر حصانه ،

يعدو ...

صوت حوافر تبتعد ...

عوف بن مالك يجلس أمام السماط ،

يقضم من اللحم ما استطاع أن يتناوله ،

حوله يقف الخدم بدنان الخمر .

جلبة فى الخارج ،

صهيل فرس ،

صوت أقدام تدلف إلى عتبة الدار .

عبد يدخل ليخبر أن عمرو بن سعد المرقش بالباب ،

يترك عوف الطعام ،

يقف ،

مفاجأة ،

عمرو يلقاه بتحية باردة .

تمثلت الحقيقة كاملة فى وجه عوف ،

أدرك من نظرات عمرو كل شىء ،

لم ينبس .

- ما حملك على ما فعلت ؟

- أردت درء ماكنا فيه من عوز وضنك ، ولو كان الأمر بيدك لفعلت مثلما فعلنا ،

وليس لنا حيلة ، فقد كنا ...

- لقد عرفت الأمر حق المعرفة ، ولا أريد أن أسمع المزيد ، كان يجب ...

- لقد فعلنا ما كان يجب أن نفعله ، فلا تهرف بما لا تعرف .

- لقد بدأت مأساة ، وتظن أنك تنهى أخرى .

نحيب يسمع ، ينبعث من الداخل ،

أم أسماء تضع رأسها بين يديها ..

الإماء حولها يسرين عنها .

- لقد حدث ما توقعته ،

لابد يوما أن سيعلم ،

كلاهما فى الحقيقة مظلوم ، عمرو وأسماء ،

كلاهما بهذا الواقع يستحق الشفقة ،

يدخل عوف إلى حيث امرأته ،

يربت على كتفها :

- لا تنزعجى ...

المهم أن أسماء بخير ،

يخرج ،

- إن قرن الغزال هذا لابد ملاق حسابه . كيف يصر
على الزواج منها مع عمله ما بيننا ؟

- لم يجن شيئا ، أنا الذى قررت الأمر ،
لقد تقدم خاطباً ووافقت .

- أيا ما يكن ،
لابد من القصاص .

- قصاص ماذا ؟
إنها أصبحت زوجا له ، فما عزمك إذن ؟

- أستعيد أسماء من براثنه ، وأقتله ،
ومن الآن فصاعدا ، فلا حياة بدونها ..
ولا موت إلافى سبيلها ..

- إن فعلت لحقك سوء الأحدوثة وسبة الأبد ،
واشتعلت نار الحرب ثانية ، ولن يفيدك ذلك بشيء .

- مهما يكن من أمر ،
فعندما أخبرت أنها ماتت ،
تصبرت حتى لات مصطبر ،
أعزى نفسي ...
أما وهى لا تزال على قيد الحياة ،

فما عدت أطيقها ، وأنا أعلم أنها بين أحضان آخر تتنفس ، ولذا الآن أقحم حتى لات مقتحم .

– إن لها لحياة جديدة ، والأولى أن تنساها

– لن أنساها طالما فى عرق ينبض ، ونفس يلفظ .

أما الزوج هذا فقد دنت نهايته ،

ولا أستطيع أن أفعل معك شيئا ، فأنت عمى مهما يكن الأمر .

أما هى فستعود معى مهما تكن العواقب ..

يتقدم عوف نحو ابن أخيه ...

يمسك به من ذراعيه :

– فكر فى الأمر ، وتداوله جيدا قبل أن تقدم على فعل ما تندم عليه ...

يصيح عمرو شاهرا سيفه :

– لقد قضى الأمر ،

هذا وضع لا تبرك عليه الإبل ،

موعدنا أرض مراد ،

يخرج مسرعا ،

يجلس عوف مكدودا ،

تهرع إليه امرأته ....

الفصل الثالث

الرحلة

مجلس القبيلة منعقد ،
بخور متصاعد ،
حلقات الدخان تحيط بالجالسين ،
الأعبد يقفون خارج الخمار ،
الجاريات يقدمن الشراب ،
قراع كئوس ،
جدل ومناقشات ،
أصوات احتجاج ...
– تداول الأمر جيدا قبل أن تعزم .
رباح يميل إلى حيث يجلس عمرو بن سعد :
– عليك بالتريث ، وتقليب الأمر على وجوهه ،
فحق الصحبة والصداقة يتيح لى أن أسدى لك النصح ..
– ألا تكفى الخدعة وإياكم ومنعى ،
فإننى قررت أمرا لا مفر من إنجازه ، فما أستطيع البقاء هكذا ..
– لا يطاع لقصير أمر .
يخرج عمرو بن مالك ، ووراءه سعد أخوه صامتا مطرقا ،

يبحثان فى طلب أخيهما عوف .

ربوة أمام المنزل

النؤى تحيط بالمكان

الإخوة يتداولون بعيدا ،

- فى الجريرة تشترك العشيرة ..

وسيعود علينا تبعة هذا العمل ..

لذا لابد من منعه ..

- كيف يكون ذلك ، والأمر كما تريان ؟

- إذن لا بد من حل وسط .

- ندعه يرحل ، ولكن نبعث رسولا يسبقه إلى أرض مراد قبل أن يشرع فى السفر .

- وما مهمته ؟

- تحذير أسماء ؟

- بل زوجها ، قرن الغزال ، فلن يؤذى أسماء ..

- ومن اخترت لهذه المهمة ؟

- لا أجد أفضل من ولدى سفيان .

- أم ابنه ربيعة ؟

- ربيعة لا يقوى على مشاق الرحلة ، كما أن سفيان له خبرة بتلك النواحى .

- إذن عليك بإخطاره وتكليفه الآن ، ولنحاول ألا يعلم عمرو ..

الخدم يحملون سلال التمر الذى جمع لتوه من النخل.

يتقدم أحدهم بسلة الى سفيان بن سعد الذى يشرف على التجمع ،

يتناول واحدة ،

يلوكها ثم يلفظ النواة ،

يقترب منه أبوه :

- أراك في حال انشغال يمنع من محادثتك فى أمر جلل .

- لا عليك يا أبي ، لقد فرغ الخدم من الجمع ..

قل ما تشاء .

- تعلم عزم عمرو أخيك على الذهاب إلى أرض مراد ،

وقد تداولنا الأمر بعيدا عنه ، أنا وعماك ،

استقر عزمنا على أن نكلفك بمهمة ،

وجدناك أهلا لها ،

وثقة منا فيك ..

- وما هى ؟

- أن تسبقه الى أرض مراد لتحذير قرن الغزال وعشيرته ،

وليحاولوا تهدئة عمرو لدى قدومه عليهم ، وإقناعه بعدم جدوى ما يفعل ، حتى يعود سالما قانعا ..

- أترى هذا يجدى ؟

- قد يجدى إذا سمع الرأى من غير قومه ، فلم يعد يعيرنا أذنا صاغية ، أو يستجيب لنصح بعد أن اعتقد أننا خدعناه وكذبنا عليه ،

لذا لا نريده أن يعلم بما عزمنا عليه ، وإذا سأل عنك ، فإنك رحلت إلى كعبة نجران للحج ..

- وهل ترى أنه لا يتشكك فى الأمر ؟

- لن يشك فى شيء ، فهو لا يفكر الآن فى أحد منا ، بل لا يريد وداع أحد .

- إذا كان الأمر فيه منجاة عمرو وحقن للدماء ، فأنا طوع أمركم .

- اتخذ فرسا لا بعيرا للسبق ، والحق بها أخرى ، فإن نفقت فعليك بالثانية .

عمرو بن سعد يهىء لرحلته ،

يتزود بما يحتاجه ،

يدعو جاريته الأثيرة :

- أين زوجك الغفلى ؟

- بالدار بعد بعض الشراب .

- أريدكما لصحبتى فى رحلتى إلى أرض مراد ،

فزوجك له خبرة بتلك المواضع ،

ومعرفة بالبيد ، فأعدا العدة .

سنغادر من الغد .

الأم تبكى وحولها جوار يواسينها .

- أكل الدهر حل وارتحال ؟

أما يبقى على ويرحمنىَ ؟

إن قلبى لا يطاوعنى هذه المرة لفراقه ،

ولكن لا حيلة لى .

نحيب مكتوم .

فى بهيم الليل ،

يخرج فارس ملثم من خبائه ،

يجر فرسا مسرجة من الحظيرة ،

يمتطيها ،

يسحب وراءها أخرى ،

يودعه شبحان ،

ينطلق تحت جنح الظلام ،

يطوى الفلا طيا .

الصبح يتنفس ،

يخرج عمرو من داره ،

تنازعه رغبة فى الذهاب إلى الكاهنة، وتقديم النذور إلى العراف واستشارته ،

فلعله يوفق فى هذه الرحلة كما وفق فى سابقتها ..

توق إلى مضاجعة الكاهنة ..

رغبة عارمة فى الخضوع الجسدى لها .

يعد النذور

يتجه إلى منزل العراف ،

تعيد الكاهنة ما فعلته فى المرة السابقة ،

نظر عمرو مليا إلى صنم الذئب المقعى .

– أرى القداح على غير ما تعتزم أيها الفارس .

ينظر العراف إلى وجه عمرو نظرة متفحصة ،

لم يفهم الأخير مغزاها ..

– لقد نجحت سفرتى الماضية ..

سأوفق كذلك المرة ..

أريد أن أرتاح نهائيا من هذا العناء المعنى .

أشعر أن الاستقرار نهائى هذه المرة .

سكت العراف قليلا

حدق فى النار أمامه

– أجل ، الاستقرار الأبدى ..

لم يأبه عمرو لقوله ،

دلف إلى الخارج

لا يريد التردد

ملؤة عزم وتصميم ،

لا عودة ،

لا مجال الآن للتراجع .

وجه أسماء أمامه ،

ابتسامتها الفياضة ،

كأن عطرها سبق عوارضها إليه من الفم ،

أإبتسامة ساحرة ؟

أم ابتسامة ساخرة ؟

الليل يعسعس ،

القمر يتوسط كبد السماء ،

نسمات تهب من ناحية الجنوب ،

الإبل تعد للرحلة ،

ثلاث حلوبات ،

سود ،

كخافية الغراب الأسحم ،

يتوجه عمرو إلى صنم الآله «عوض» القائم أمام مضارب القبيلة يقف أمامه ناظرا إليه :

عوض

لا عود إلا بود ،

وفراق ،

لا فرقة إلا برد ،

فهيىء لى طريقى ،

وامنحنى بركتك ،

عواء ذئب غير بعيد ،

يصدر حين فجأة ،

ترد عليه كلاب الحى ،

الإبل الثلاث ترزم ،

توضع عليها المزادات ،

صيحات الإناخة والنهوض ...

تبدأ الخطو ...

تتحرك ببط ،

حتى تختفى وسط حنادس الليل .

ريح رخاء

مكان المعركة السابقة

أسقونى ...

أسقونى ...

الهامات تصرخ ،

شعر عمرو بأن ما يشبه الطائر قد غطى وجهه ..

يصفق بجناحيه ،

يشبه البوم ، لكن ليس له ملامح محددة ،

- فلنمل العنان إلى الناحية المقابلة لهذا الجبل لتجنب السير فى هذا المكان ،

وليكن طريقنا الالتفاف حول تلك الربوة ..

الغفلى يشير بيده .

- هذا يطيل الطريق ..

- أجل ، ولكن أفضل من التعرض للهامات الصارخة ..

فهيأتها على قدر من الشناعة ،

صدى البوم يمر سراعا أمام الركب صائحا ،

يختلط صوته بصيحات أخرى بعيدة ، تمزق سكون الليل الموحش .

يمر الركب حثيثا ..

يلوح من بعيد شبح شىء يتحرك .

يقترب الركب منه ،

منظر بشع ،

ناقة معكوس رأسها إلى ذنبها .

معقول يداها ورجلاها ،

تصدر صوتا ،

أنينا ،

تحاول الحركة ،

النزع الأخير ...

- أهي البلية ؟

- أجل ..

وها هو القبر بجوارها ..

ينظر عمرو إلى الحيوان البائس ،

ثم إلى القبر ...

- إنه قبر ثعلبة بن عوف بن مالك ..

وتلك ناقته ،

وجب قلبه ،

أخو أسماء !!

صديقى ..

فأل سيئ ،

قبر حقيقى ،

حيوان يحتضر ،

أحس بالضيق ،

يستأنف السير ،

ما يزال ينظر ناحية القبر والبلية ،

سويعات تمر ،

يوقف الغفلى ناقته ..

ينظر إلى السماء متطلعا ..

يراقب النجم فى الأعالى ،

يشير بيده :

- علينا بسلوك هذا الاتجاه ،

فإن أرض مراد تقع شمالى نجران .

- يمكننا اختصار الطريق بالتوجه غربا مباشرة .

- لا أنصح بذاك ،

لابد من تجنب منطقة «ملاع» أرض العقبان ، فقد تهاجمنا وتؤذينا وخاصة إذا اقتربنا من جبالها المقبضة للطرف ، والتى تتخذ من شماريخها كهوفا لسكناها .

- إذن فليكن اتجاهنا الشمال الغربى بحذاء جبل الأجرد..

- هذا أراه أفضل وإن طال الطريق بعض الشيء .

الركب يتحرك ببطء بجوار الجبل الخالد ، الصامد ،

ينظر عمرو إلى سواده القائم ،

أصوات الذئاب وهوام الليل تنبعث من ورائه .

على ضوء القمر الخافت ،

يلمح خيال العصم ،

تلك الوعول المتشبثة بالجبل ،

تستمد منه المنعة ومقاومة الفناء ،

يراقبها فترة ،

إنها ترى حياتها لا تنتهي إلا بنهاية هذا الجبل .

الريح تمر به ،

تعبث بثيابه ،

يشدو الغفلي بأغنية فيها حداء ،

إيقاع رتيب ،

لكنه يسلي وقت الحاجة ،ويقطع ملل الرحلة .

يبزغ نور الفجر ،

يستريح الركب قليلا ،

يترجلون ،

تقدم الجارية بعض التمر والشراب لعمرو وزوجها .

يخطو عمرو قليلا ،

يتعثر فى شىء ، يكاد يسقط ،

يهرع إليه الغفلى ،

عظام متناثرة وهياكل عظمية لحيوانات الفلاة .

- هذا يدل على أن المياه بعيدة ،

- كذلك لا نرى طيرا ،

وليس من جثمات له .

- علينا السعى والجد فى السير إلى نبع مياه قريب ،

فالماء فى المزادات لن يصمد طويلا .

تضع الجارية بعض العشب أمام الإبل ،

يعب عمرو من شرابه ..

- فلنستأنف السير قبل الحر ..

الركب يتحرك ،

مفازة تبدو أمام الناظر ممتدة ، غاية فى الجمال ،

رمال متموجة حمراء ،

شجر العبل والسنط ونحوهما متناثر هنا وهناك فى خضرة

داكنة ،

يتأمل عمرو الشجر ،

كيف تستطيع تلك الأحياء أن تصمد وتعيش مقاومة

لشدة الحرارة ؟

بدون ارتواء ؟

لا شك أن جذورها تمتد عميقا فى الأرض ، أو تحتفظ

بالماء داخل أوراقها ..

حيوان يصمد ويقاوم ويعتصم ...

نبات يتشبث بالحياة ويحتمى ...

آثار أقدام حيوان ،

عظام أخرى متناثرة ،

عظاية تعدو متراقصة بجسمها الانسيابى اللامع ،

تسقط فى حفرة غير بعيد .

السير مستمر ...

الحرارة تشتد

يزداد أوارها ،

ينظر عمرو أمامه على مدى الطرف ،

يبسط راحته فوق عينية اتقاء لضوء الشمس ،

لمح ضوءا يخطف الابصار ،

يلمع ...

– ها هو الماء !

– إنه ليس بماء ، إنه الآل ، فلا تنخدع به .

- شتان ما بين رحلة اليمن وهذه !
- طريق اليمن مطروق معبد ، وبه قطان ، أما هذا فأمره يختلف ...
- هات ما عندك أيها الشاعر !!
يجلس ملك اليمن وحوله حاشيته وخدمه ...
نساء فاتنات تيراقصن على دخان البخور ،
عبق المقاصير المحيطة يضوع فى المكان ،
- ما أجمل المصطاف والمتربعا !!
ما أجمل تلك الايام حيث نلت فيها الكثير !
ثورة من النقع تبدو على بعد كأنها سحابة تلامس الأرض ..
يراقبها عمرو ..
تتكشف الثورة عن سرب من الظباء يعدو ...
ما أروع المنظر وأبهجة للنفس !!
- إذا حثثنا السير فى هذا الاتجاه ، نصل إلى كعبة نجران حيث أرض مذحج ،
وبنو الحارث بن كعب .
هل أجد عندها ما وجدت بكعبة «الربة» ، الإلهة الأنثى، فى رحلتى السابقة ،

والتى طفت بها ؟

بناؤها يعلو هامات ..

صيحات وتلبية وتهليل ..

نساء وفتيات يسدلن شعورهن ،

يطفن حولها ،

أثداء تتأرجح ،

نهود تهتز وتنتفض ،

لا معات القدود والسوق ،

الرجال وراءهن يطوفون شبه عراة ،

رافعين أيديهم إلى أعلى ملبين :

– لبيك اللهم لبيك .

لبيك لبيك ،

لاشريك لك ،

إلا شريك هو لك ،

تملكه وما ملك ،

يظل الطواف والتلبية وسط الصراخ والنداء ،

يلحق الجمع الآخر بالأول ،

يلتقون معا ..

يزرعون الخصوبة والحياة حول الآلهة ،

ترتوى النساء وسط صيحات الخضوع ،

الدخان الصاعد من نيران المباخر الضخمة ينتشر حول الكعبة ..

كذلك أقوام القبائل ،

تحج إلى الكعبة الكبرى ،

يطوفون سبعا ،

يهدون ،

يرمون الجمار ،

هل يذهب يوما ؟

المطى تتنعل ظلالها ...

تثاقل حركاتها .

– علينا بالراحة قليلا ريثما يزول الحر ،

تناخ الإبل ،

يترجل الركب ،

ينصب الغفلى خباء بجوار إحدى سمرات البادية ،

تعد الجارية طعاما ،

يرقد عمرو مريحا جسده فى ظل الخباء ،

ينظر حوله ...

يلمح شيئا على مبعدة ،

يقوم ، يتجه نحو هذا الذى رآه ...

عظام ضخمة لحيوان ..

يدعو الغفلى ...

— هذه ليست بعظام حيوان ، إنها لطائر !

— طائر بهذه الضخامة ؟

— أجل فها هى مخالبة ، وهناك بقايا من ريش .

— إذن لابد وأن تكون العنقاء ..

— غالبا .. بل هى عظامها ..

لقد كانت منذ عهد بعيد ،

عاشت فى بلاد بنى عبس ،

صارت تخطف صبيانهم ،

دعا خالد بن سنان العبسى الله أن يرفعها من الأرض ،

هلكت ..

لم يعد لها أثر سوى هذه العظام أمامك ...

ينظر عمرو مليا ،

يعود إلى الخباء ووراءه الغفلى ..

— ماذا بقى لنا من الماء ؟

— ليس بالكثير ..

— لعلنا نعثر على بئر قريبة .

هدوء شامل يسود المكان ...

الحر يشتد ،

سكنت حركة الحيوان والطير ،

ما عدا صواديح النهار فوق الأشجار ،

يتأمل عمرو فى الفضاء وهو مستلق ،

تذكر الكاهنة ،

تعاوده النشوة ،

يود لو يجد إلّهة أنثى يتعبد لها ،

المقابل ..

طيف أسماء يراوده

ماذا يا ترى حدث لها ؟

أهى سعيدة أم شقية ؟

إنه لفى شوق شديد لمعانقتها ،

للتفانى فيها ،

لا يرى سواها أمامه .

تسرب إليه السبات ..

أفاق على صوت فى الجانب الآخر من الخباء ،

أنصت ..

آهات وحركة ،

صوت يعلمه جيدا ،
تحرك قليلا ليتمكن من النظر ناحية الصوت ،
لمح الأقدام والأرجل المتعانقة ،
عاد الى مكانه متصنعا النوم ،
أفاق بعد هنيهة ،
حصى دقاق يقذف ناحيته ...
قام فزعا ،
نظر حوله ،
لم ير مصدرا لهذا القذف المستمر ،
دعا جاريته وزوجها ..
- إنه شيطان القيلولة ،
يتتبع المسافرين ويرميهم ،
ريح تدور حولهم ،
صوت نواح أو عواء ،
تحول القذف من الحصى إلى الحجارة ،
أين أنت أيها الشيطان الشقى ؟
ألا تظهر نفسك ؟
- إنها تتطاير من أسفل الى أعلى ...
صوت عويل مكتوم عند بعد ،

تجمع الثلاثة وراء الخباء لاتقاء الرمى.

- هل حانت نهايتنا ؟

الرجم يستمر ..

يحاول عمرو ورفيقاه حماية أنفسهم بأيديهم وملابسهم..

الجارية تصرخ وتحرك رجليها ..

يتعرى فخذاها ،

ما تزال بهما آثار الممارسة ،

صراخ أشبه بعواء الذئب ،

القذف يخف شيئا فشيئا ...

سكنت الريح ...

- لقد ذهب الشيطان ...

- ما خبره ؟

- إنه كان بعدن من أرض اليمن أمة ،

بقايا ثمود

ملك يحكم فيهم حسن السيرة ،

شق موته على قومه ،

لما جاءه الموت اطلى بدهن ،

على عادتهم ،

بقيت صورته ،
لم تتغير ،
اغتنمها الشيطان منهم ،
خاطبهم أنه لم يمت ،
لكنه تماوت ليرى صنيعهم بعده ،
أمرهم أن يضربوا حجابا
بينه وبينهم ،
يكلمهم من ورائه ،
نصبوه صنماً ،
لا يأكل ولا يشرب ،
جعلوه إلّها يعبد ،
ذاك الشيطان فى أثناء ذلك ،
يتكلم على لسانه ،
فأصفقوا على عبادته ،
بعث نبى فيهم ،
كان الوحى ينزل عليه ،
فى النوم دون اليقظة ،
حنظلة بن صفوان
أعلمهم كيد الشيطان ،

نصحهم ،

أمرهم بعبادة ربهم ،

قتلوه وطرحوه فى بئر ،

رموه بالحجارة ،

حلت بهم النقمة ،

أصبحوا ...

والبئر غاض ماؤها ،

تعطل رشاؤها ،

صاحوا ...

ضج النساء والولدان والبهائم بالعطش ،

عمهم الموت ...

- أجل ..

لقد تذكرت ..

إنهم أصحاب البئر المعطلة ،

والقصر المشيد ،

قصر شداد بن عاد بن إرم ..

- هو ذاك .

كأن لم ير فى الأرض مثله ،

أقفر ..

صارت تسكنه الجن ،

- لقد رأيت بقاياه ..

عند اجتيازى بأرض اليمن ،

سمعت العزيف المستمر ..

- لم يجد ذالك الشيطان من يغويه ،

ظل تائها فى القفار ،

يهاجم كل من يراه وقت القيلولة ،

وقت أن تركهم .

- هلم بنا نغادر هذا المكان .

الجارية تلملم الأشياء ،

الغفلى يحل الخباء ،

يحضر الإبل التى فزعت وتلاصق بعضها ببعض وتناثرت عليها الرمال .

الركب يتحرك ويستأنف السير .

- سنعثر على مكان آخر ريثما يقبل الليل .

الشمس تغيب ،

الحراره تخف حدتها ،

يبدأ الركب فى استئناف السير ،

أرض تطوى ..

وراءها أرض ...

يسترجع عمرو ما حدث فى يومه ،

انتابته نشوة ورغبة فى مضاجعة الجارية .

– فى غد لابد من العثور على نبع أو واحة ،

الليل يرخى سدوله ،

يتقدم الركب ،

أصوات حيوان الليل تعود ،

صراخ بوم يحوم ،

عواء ذئب بعيد ،

ينصت عمرو ...

يصيخ السمع ...

أما يسمعه حقيقة أم وهم ؟

همهمة وضوضاء عن بعد ،

يتطلع إلى المغازة المظلمة أمامه ..

يلمح عن بعد نيرانا موقدة فى أماكن متفرقة ،..

– هانحن نقترب من أقوام غير بعيدين ،

– لا يغرنك الضوء ، إنها ليست نار قرى أو هداية ..

إنها نار الغيلان ، يوقدونها ليضلوا المسافرين .

– علينا تجنبها إذن ..

فلنول وجهتنا شطر الناحية الغربية ،

الغفلى يقف قليلا ..

يراقب النجم ملياً ..

- أمامنا مسيرة يومين لنصل إلى أرض مراد .

انقضى الليل ..

ظهر نور الصباح ...

شعر عمرو بالجوع ..

- فنسترح قليلا ، ونعد طعاما .

يترجل المسافرون وتناخ الإبل .

يتوشح الغفلى قوسه ويعد أسهمه .

- أمهلونى فترة لأحظى لكم بصيد ، فهو غير بعيد .

يتجه الغفلى إلى حيث يتوقع قطيعا من الظباء .

الجارية تشرع فى إيقاد النار ،

تجمع الأعشاب والحجارة ،

تأملها عمرو ،

ثارت رغبته فى مضاجعتها ،

تردد ...

خفق قلبه بعنف ،

دعاها ..

لبث طواعية ،

ضاجعها بشغف ،

لم ير فيها إلا وجه الكاهنة ،

جسدها ...

حركاتها ...

عادت تستكمل ما بدأته من إعداد الأعشاب والحجارة ،

جلس على حجر يراقب الأفق ،

لمح النفلي يعود ومعه صيد ...

- لقد طاردت عانة من بقر الوحش ،

اقتنصت صغيرامنها ،

- أمباح الصيد للوقت ؟

- الصيد مباح لمن به حاجة .

- أتعمل عمل الطائيين ؟

- كيف ؟

- إن طيئا وخثعما وبعض بني الحارث بن كعب ،

لا يحجون ولا يحرمون الأشهر الحرم ..

في حين أن غيرهم يحج ويحرم تلك الأشهر .

فلا يغزو ولا يقاتل فيها .

- أعدي النار ريثما أجهز الذبيحة .

النار يرتفع سنامها ،

رائحة الشواء تعبق بالمكان ،

الطعام معد ،

يصيب منه المسافرون المكدودون ،

يسمعون صوتا ...

يظهر ذئب أضنته المسغبة ..

يتقدم عاويا ..

يقضقض عصلا ،

فى أسرتها الردى ،

كقضقضة المقرور أرعده البرد ،

يقف ..

يقعى ..

كمن يستجدى ..

لعاب يسيل ..

يلقى إليه المرقش بقطعة من شوائه ،

تناولها الذئب بين فكيه ،

عدا ..

لا يلوى على شيء ..

— حذار !

لا تعد لفعل ذلك ..

فستأتى ذئاب أخرى تطلب نصيبها ..

– إنى لا أطيق نظرات حيوان جائع وأنا أطعم .

مضى اليوم ..

النار خبت ،

تناثر رمادها ،

أقبل الأصيل ،

قام الجميع لاستئناف السير مهتدين بالنجم ..

كل هذا يهون فى سبيلك يا أسماء ...

يا ترى كيف أنت ؟

قرص الشمس الأحمر وراء رمال الصحراء يتحرك ببطء...

روعة المنظر شدت أنظار الشاعر .

أين منى الأهلون الآن ؟

هل يقدر أن أعود اليهم ؟

إنهم مشتركون فى خداعى ..

أم كانوا على حراصا ؟

لا يسرون الأمر إلا لصالحى ؟

وهذان العبدان ..

ما موقفهما يا ترى ؟

الإبل ترزم وهى تطوى الفلاة ،

القافلة تشق ستار الليل الحندس ...

يسرح عمرو ببصره :

ودويه غبراء ،

قد طال عهدها ،

تهالك فيها الورد ،

والمرء ناعس ،

قطعت إلى معروفها

منكراتها ..

بعيهامة تنسل ،

والليل دامس ..

تركت بها ليلا طويلا ..

ومنزلا ،

وموقد نار ،

لم ترمه القوابس .

وتسمع تزقاء

من البوم ..

حولنا ،

كما ضربت بعد الهدوء
النواقس ،
فيصبح ملقى رحلها ،
حيث عرست من الأرض ،
قد دبت
عليه الروامس ،
ولما أضانا النار
عند شوائنا ،
عرانا عليها
أطلس اللون
بائس ،
نبذت إليه حزة
من شوائنا
حياء ،
وما فحشي على من أجالس ،
فآض بها جذلان
ينفض رأسه ،
كما آب بالنهب
الكمي ... المخالس .

وأعرض أعلام

كأنها روسها ..

رءوس جبال

فى خليج تغامس ،

إذا علم خلفته يهتدى به ،

بدا علم فى الآل

أغبر .. طامس ،

صرخات ذئاب تتابع ..

عواؤها يمتزج بحـداء الغفلى ..

يبدو نور الفجر ،

ينبلج الصباح ،

الإبل ترهز بمن عليها ،

يظهر عليها الإعياء ..

– لنسترح قليلا ونتناول إفطارنا ..

– لقد جففت بعض اللحم ليصمد ..

الجارية تقوم إلى وعاء ،

تبحث عن قربة الماء ..

– الماء أوشك على النفاذ ،

لابد من البحث عن بئر أو نبع قريب ..

يتقاسم عمرو ورفيقاه اللحم المقدود ، وبعض التمرات الجافة ،

وما تبقى من الماء ...

يرنو الغفلي إلى خط الأفق ناحية الغرب ...

— على ما أعلم ، هناك مكان به نبع ماء فى هذا الاتجاه المقابل لطريق كعبة نجران ،

وهناك كهف بجوار النبع مهجور ، فعلينا الاتجاه نحوه .

يستأنف الركب السير ...

تشتد حمارة القيظ ،

العرق الأسود ينباع من أذفار الإبل الجسورة ،

كحيل معقود ،

قار سائل ،

يغطى جوانبها ،

ثورة من الغبار تبدو عن بعد ،

تتكشف عن قطيع من بقر الوحش يعدو ،

وراءه صياد بكلابه وأسهمه ..

يراقب الركب القطيع حتى يختفى وسط سراب البيداء ،

يتوقفون أمام صخرة ،

كانت فيما مضى إلها يعبد ...

- إنه ذو الشرى ، أو ما تبقى منه ..

- أظنه كان لقبيلتى دوس والحارث بن يشكر بن بشر من الأزد .

- لقد أخنى عليه الدهر الذى أخنى على لبد .

وعفى عليه الزمن ..

يترجل عمرو ..

يجول فى المكان ،

وجد قليبا يبدو أنه حفر من زمن ...

- ها هى بئر !

يتجه عمرو ناحيتها ..

يهرع الغفلى وامرأته إليه ..

يقفون أمام البئر يتطلعون ..

- إنها زوراء قليلة الماء ..

وأغلب الظن أن الماء قد أسن ..

يميل عمرو بعنقه لينظر داخل البئر ،

يصل إلى مسمعهم صوت أشبه بالصفير أو صليل الجرس ..

- ما هذا الذى أسمع ؟

يشد الغفلى رفيقيه ويجذبهما بعيدا ...

- فلنبتعد .. إنها إحدى الصلال السامة .

يتراجع الجميع إلى الخلف ، يحاولون الابتعاد ..

تخرج من البئر ناشرة ،

تسعى فى إثرهم ،

تقفز وتلدغ عمروا فى ساقه ،

صرخة تند عنه ..

يتبعها صيحة ألم ..

يسقط عمرو على الأرض ،

يمسك ساقه بيده ،

الغفلى يرمى الأفعى بحجر فيخطئها ،

تنسل الأفعى عائدة إلى البئر ،

يشعر عمرو بشبه إغماءة .

يمسك العبد بساق عمرو ..

يخرج مدية ويشرط مكان اللدغ ،

يحاول إسالة ما استطاع من دماء ،

يضمد الجرح بقطعة من ملابسه ،

يتحامل عمرو مستندا إلى ذراع الغفلى ،

يتوسد نتوءاً بربوة بعيدا عن البئر ،

يترك الغفلى عمروا راقدا ،

السماء أمامى ..

السحب تركض فى الأفق ،

طيف أسماء ..

مالى أراك ساهما يا عمرو ؟

أقبلك قبلة المساء ،

هذيان الحمى يأخذ مأخذه ،

العرق يتساقط ..

يغطى الجسد ،

رعشة تشمله ،

تصب الجارية بعض قطرات الماء على شفتى عمرو ،

يتطلع الغفلى إلى الأفق البعيد ،

يدور ببصره فى المكان ،

ينظر إلى عمرو الذى يكاد يغيب عن الوعى ..

— أظن أننا قريبون من أرض مراد ، وأن كهف خبار ليس ببعيد ،

علينا البحث عنه ، فنحن فى حاجة إلى ماء ومكان للراحة .

ترمق الجارية وزوجها عمروا الذى اشتدت حرارته .

— علينا أن نحتمله حتى نبلغ الكهف ..

- لا يمكننا حمله إلا معروضا ..

عمرو لا يعى شيئا مما حوله ،

العبدان يحملانه على ظهر ناقته معروضا ،

يسوق الغفلى الناقة ،

الركب يبحث عن مكان الكهف ،

الحر يشتد ..

العرق يتصبب ..

السير مستمر ..

على مرمى بصر الغفلى ظهر الكهف ،

اتجهوا نحوه حاثين الخطو ..

- أأنت واثق من أنه هو ؟

- نعم ، ألست ترين التجويف الصخرى حوله وارتفاعه قليلا ..

- إنك لا شك أدرى ،

الذئاب تحوم حول الكهف ،

تستطلع القادمين ،

يقترب الركب ..

تترجل الجارية ،

يحمل الغفلى عمرواً إلى داخل الكهف ،

تبتعد الذئاب قليلا ،

تأخذ الجارية بأخطمة الإبل لإناختها أمام الكهف .

يسند الغفلى رأس عمرو إلى حشية بعد أن أعد له فراشا.

يضع حاجياته بجانبه ،

يتجه ليبعد الذئاب التى أخذت فى التراجع بعيدا ...

- ماء .. أريد ماء ..

تدنو منه الجارية ،

قطرات تتساقط فوق فم نصف مفتوح ،

شفتان متشققتان متفرجتان ،

تتحركان

تهمسان ..

يتناول الغفلى قربة الماء ،

يتجول داخل الكهف ،

الكهف له مخرجان ،

الأول حيث دخلوا ،

والثانى إلى الخلف ،

يؤدى إلى عين متدفقة داخل صخر مرتفع يحوطها ،

حولها رمال ..

آثار أقدام ذئاب حول العين ،

يملأ الغفلى القربة ...

- لابد من سقى الإبل ،

لا طريق للعين إلا من خلال الكهف ،

علينا إعداد المزادات والأوعية ،

الشمس تغيب وراء الأفق ،

يرخى الليل سدوله ،

نسيم الليل يهب ،

عواء الذئاب يسمع من بعيد ،

النار تتألق أمام الكهف ،

الوقود المشتعل يصدر صوتا ...

- أهذه النهاية ؟

- لقد زادت عليه الحمى ..

وقد يهلك ..

- ماذا نحن فاعلان إذن ؟

- لا حيلة إلا الصبر ، ومداواته حتى يبرأ ..

- الملل يتسرب إلى النفوس .

لفافة تفض ،

وعاء يكشف ،

أطعام هذا ؟ أم بقايا ؟

الزاد أوشك على النفاذ ..

الخوف من المجهول ،

من الغد ،

شوك القتاد ،

يتقلب عمرو على جنبيه ،

العينان لا تستقران على حال من الحمى ،

حرارة الجسم تشتد ،

العرق يتصبب ،

ارتعاشة تشمله ،

فخذا الجارية يحيطان برأسه ،

الكهف أمامه مظلم ،

لعاب يسيل ...

ابتسامة أسماء وسط الظلام ،

أسنان لؤلوية تلمع ،

أين هو الآن ؟

أهو الكهف الذى أسمع عنه ؟

أحانت النهاية ؟

يفيق قليلا ،

يتحامل على نفسه ،

شعور بالجوع يعقبه غثيان ،

ضوء الفجر يبدو من خلال مدخل الكهف ،

يحاول الحركة فلا يقدر ،

تصلبت أوصاله ،

داخله شعور بالقلق والضيق ،

العبدان يقفان بالخارج ،

يتحدثان ،

أنصت متحاملا ...

– لنعد له بعض الطعام من تلك الأعشاب .

– هل تبقى معك تمر ؟

– لم يبق إلا القليل ...

– لم يبد عليه أى إبلال ؟

– قد تطول به العلة ، ولا ندرى ما مصيرنا ؟

– لا سبيل الآن إلى تحقيق ما يهدف إليه.

– ألسنا فى أرض مراد ؟

– أجل على ما يبدو لى ، ولكن الأمر كما ترين ؟

خفقات قلب تكاد تقد الأديم الساخن ..

أرض مراد ؟

أأنا قريب إذن من أسماء ؟

من تحقيق هدفى ؟

أم مازلت بعيدا ؟

الشمس ترتفع إلى عنان السماء،

عقبان تحوم حول المكان ،

طيور صغيرة تحط أمام الكهف ،

استقر فى مكانه ،

مد فى جسده المنهك ،

استغرق فى النوم ،

أمه تمد له يدها ...

يحاول إمساكها ، لا يفلح ...

يسقط فى هوة ..

تصرخ الأم مستغيثة ..

مالى أراك مهموما يا أبى ؟

- يا عمرو ! خذ حرملة معك ..

اذهبا إلى ذلك النصرانى بالحيرة ..

يعلمكما الخط والكتابة ،

سقط القرطاس من يدى ..

يا حرملة .. هات الدواة ..

أفاق على صوت الغفلى ..

- أما لهذه الحمى من نهاية ؟

ينظر إليه ،

يتحسس جسده ورأسه ،

ما تزال الحرارة مشتدة ،

تتجه الجارية إلى الإبل ،

تضع أمامها ماء وبعض الأعشاب ،

يجلس الغفلى خارج الكهف ينظف عدة صيده ،

يعدل عمرو من رقدته ،

عظاية تعدو ثم تختفى فى أحد الشقوق ،

عنكبوت تتدلى من السقف على خيطها ،

طيور تحط عند النبع على مرأى غير بعيد ..

تشرب حسوات من الماء ،

تعود إلى السماء حيث لا نهاية للأفق ،

المساء يقترب ...

الجارية تشعل النار أمام مدخل الكهف ،

تجلس أمامها ،

يقبل الغفلى من بعيد ممسكا بأرنب برية ...

- عليك بسلخها وشيها ..

أصوات الذئاب تسمع من بعيد ،

خفاش أسود يدخل الكهف ،

يحوم عدة مرات ثم يخرج ،

تقسم الجارية الشواء ،

يتناول عمرو قطعة منه ..

لا طعم لها ..

أين هو من عصير الحب الحامض ؟

أو طعم ريق أسماء ،

غلبه الضعف ،

يخلد إلى النوم ،

يفيق فزعا على صوت جرذ جبلي يصرخ ،

الكهف مظلم إلا من بصيص من ضوء القمر الساطع

بالخارج ،

نسيم يهب ،

يشعر ببرودة ،

يشد رداءه والأغطية على جسده .

القلق يساوره ،

فارقه النوم ،

أحس وكأن الحمى أوشكت على الزوال ،

سأصل إلى أسماء ..

سأحقق هدفى مهما كلفنى الأمر ..

ها أنت أراك أمامى !

حدق فى الظلام ...

سرى خيالك ليلا ،

فأرقنى ،

وأصحابى هجود .

فبت أدير أمرى كل حال ،

وأرقب أهلها ،

وهم بعيد .

على أن قد سما طرفى لنار ،

يشب لها بذى الأرطى

وقود .

حواليها مها

جم التراقى ،

يرحن معا ،

بطاء المشى بدا ،

عليهن المجاسد والبرود .

سكن ببلدة

وسكنت أخرى ،

وقطعت المواثق

والعهود .

فما بالى أفى

ويخان عهدى ،

وما بالى أصاد

ولا أصيد .

ورب أسيلة الخدين

بكر

منعمة ،

لها فرع

وجيد ،

وذو أشر

شتيت النبت

عذب ،

نقى اللون

براق

برود .

لهوت به زماناً من شبابى ،

وزارتها النجائب

والقصيد .

أناس

كلما أخلقت وصلا ،

عناني منهم وصل

جديد .

تناهى إلى مسمعه آهات وهمس ، يتبعهما حركة ..

تحامل على نفسه ..

زحف إلى حيث جانب من حائط الكهف ،

جسد شبه عار تغطى بآخر ،

متزر مرقع مسدول ،

قطع ملابس متناثرة ،

أنفاسه تتلاحق ،

جف حلقه ،

لم ير إلا رجلين تحيطان بالجسد الآخر ،

تحتضنانه فى قوة ،

حركة متكررة ..

ثم يصيح الغفلى صيحة مكتومة ،

أنة طويلة تصدرها الجارية ،

صمت ..

تعود الرجلان إلى مكانهما ..

ارتفعت حرارته ثانية ،

لا سبيل إلى زوال الحمى إذن ..

أليس لهذا المرض من آخر ؟

الحياة واهنة ،

هل هناك أمل في النجاة ؟

عاد إلى مكانه ..

أصابة ضيق شديد ،

كاد يغشى عليه في رقدته ،

مد يده إلى قدح ماء يكاد يجف ..

غلبه النعاس ويده ممسكة بالقدح ،

تتعاقب الأيام رتيبة مملة ..

يقدم الغفلى لعمرو نقيع العشب ،

يتجه إلى حيث نبع المياه وراء الكهف ،

يملأ الأوعية والجفان ،

ظلام يسود

سكون طاغ إلا من صراخ حيوان الليل وطيوره ،

قام فجأة من سباته فزعا ..

أصوات ذئاب قريبة ،

تحامل على نفسه ،

صرخ بالعبدين !!

أفاقا من نومهما ،

ربكة شملتهما ،

حاول إشعال النار التى أوشكت أن تخبو ..

أضاءت النار ما حولها ،

قطيع من ذئاب البادية يحيط بالكهف ،

يدور حوله ،

يقترب من مدخله ،

تبعده ، النيران ..

– الذئاب تريد اقتحام الكهف

– ما دافعها ؟

– لست أدرى ، ربما تريد افتراسنا .

– ربما ، ولكن لماذا لم تفعل ذلك عند قدومنا ،

لابد شىء آخر يجذبها إلى الكهف ..

يحاول الزوجان إبعاد الذئاب التى تكشر عن أنيابها ،

غضب الذئاب يزداد ،

يتحامل عمرو على نفسه ،

يتناول سيفا له ...

- لا تفعل ، فإن قتلت أحدها ،

ازدادت شراسة وإصرارا ،

يدع عمرو سيفه ،

يمسك بقطعة من الخشب مشتعلة ،

يلوح بها فى وجه الذئاب الغاضبة ،

يفعل العبدان فعله ،

يسقط عمرو ألما وإعياء ..

الذئاب لم تفلح ،

أصابها القنوط ،

تبدأ فى التفرق والتراجع واحدا وراء الاخر ..

ما المصير ؟

أيصبح طعاماً لهذه الضوارى آخر الأمر ؟

أهذه آخرته ؟

أخذ الجهد منه مأخذه ،

رقد ،

نفس مبهور ،

صدره يعلو ويهبط ،

عرق متصبب

أغمض عينيه تعبا ،

ولكن لا سبيل إلى النوم ..

مضت سويعات ،

لا حراك به ،

تناهى إلى أذنه همس ،

أصاخ السمع ،

زحف متحاملا إلى حيث يرقد العبدان :

– لست أدرى ما الحال والمصير ؟

– لا هو بميت فينعى ،

ولا هو حى فيرجى ،

يقوم الغفلى ..

يتجه إلى الخلاء ليقضى حاجته ،

يعود عمرو لئلا يُرى ..

– ما الحل إذن ؟

– نرحل ؟

– ماذا ؟ نرحل ؟

كيف وحالته هكذا ؟ وكيف نحتمله ؟

– ليس هذا ما أقصده ،

مقصدى أن نرحل بدونه ..

- ليس لك أن تقول هذا ،
لا يصح ما تعتزم ، ولا أرضى به .
كيف نتركه وهو بهذه الحال ؟
- إن سفرنا معه كئيب شاق ،
وليت شعرى أى حظ هذا الذى أشركنا معه فى المصير؟
- لا يحق لك القول بهذا أيضا ،
فقد رضينا منذ البداية بصحبته ..
- لم نرض بشىء ، فقد وجدنا أنفسنا معه على رغمنا ،
ولم أتوقع أن تصل الأمور إلى هذا الحد .
كان علينا أن نعود به فور إصابته ..
- ما كان يمكن ذلك وهو بهذا الوضع ،
كما أننا توقعنا أن يبرأ خلال أيام ...
- وحتى إن برأ . .
- فهو لايرى إلا الانتقام،
ولايرى إلا الاستمرار والإصرار فيماعزم عليه،
والعودة بأسماء مع ما أصابه،
هذا والله لهو الجنون بعينه . . .
- فكيف ترى الأمر إذن؟
- أرى أن نتركه على حاله ونعود،

فقد هلك سقما ،

وهلكنا معه ضرا وجوعا ،

دموع تساقط على خدى الجارية . .

— لقد قررت الأمر . .

أطيعينى، وإلا فإنى تاركك وذاهب ،

— حديثك مقنع ، ولكن لايطاوعنى قلبى ،

— سأغادر فى الصباح سرا ، ففكرى فى الأمر .

— وماذا نقول إذا سئلنا عنه لدى وصولنا؟

— نقول إنه مات فى الطريق ، ودفناه ، أو أكله الذئب.

— وهل يصدقون ما نقول؟

— هذا شأنهم.

— مالى أراك واجلة؟

هلم إلى الرقاد ، ومن الصباح نجد السير ، نأخذ ناقته

ونترك له أخرى.

ماهذا الذى يسمع؟

أهو خيانة؟

لم يصدق أذنيه.

كيف يفعلان هذا به وهو ولى نعمتهما؟

تحامل على نفسه،

عاد إلى فراشه،
تجلت الحقيقة أمام عينيه واضحة وضوح الشمس،
الهلاك محقق والرحلة لم تصل إلى نهايتها بعد .
أهكذا يموت؟
بيد عبدين آبقين . .
أأواجههما بما سمعت؟
قد يقتلانى وأنا عاجز مريض،
هل أسكت وأنتظر مصيرى المحتوم؟
جرذ يجرى،
يرى فراش عمرو،
يقف مترددا،
يقترب ويخطو فوقه ،
ثم يسرع ويختفى فى جحر،
ما الحل إذن؟
إنهما ملا ويريدان العودة ،
أأعود معهما؟
أأعود وقد أصبحت فى أرض مراد حيث منزل أسماء؟
وكيف أعود ولم أحقق هدفى بعد؟
كيف يكون شأنى؟ وماذا تقول القبيلة عنى؟

لاسبيل إلى النكوص،

لاسبيل ،

المرض يمنعنى،

يشلنى،

هل هذا هو المانع حقيقة؟

ومانع م؟

أمن العودة؟ أم من الذهاب إلى أسماء؟

وإن قدر لى الشفاء، فمن الطبيعى ألا أعود أدراجى.

بل سأستمر فى الرحلة . .

أأقطع كل هذه المسافة البعيدة وأنا قادر؟

ويصيبنى المرض وأنا على أبواب ديار أسماء؟

لا عودة . .

أيتها القوة الكامنة فى نفسى ،

ادفعينى إلى التقدم والصمود ،

نعم لاعودة ،

أيها الشبح!

إنك تدفعنى إلى الانتقام وتعطينى المنعة والإصرار.

ولاأستطيع مقاومتك . .

ولكن ماذا يكون حالى بعد رحيل العبدين؟

هل أستطيع الصمود طويلا بهذه الحمى اللعينة؟

عواء الذئب مايزال يسمع من بعيد.

إذن . . فالبقاء . .

الغضب يأخذ مأخذه لتذكر ماقرره العبدان .

أأتركهما يذهبان ويخدعان الأهل؟

لابد من أن يلقيا جزاء فعلتهما ،

لابد من الثأر،

ولكن كيف؟

والعجز يقيدنى،

والمرضى يوهننى ،

رقد يراقب سقف الكهف

حيث نسجت العنكبوت بيتا لها . .

أوشك ضوء الفجر على الانبلاج ،

طيور الفجر ترسل تغريدها مستقبلةشعاعه الأول،

زحف متحاملا إلى حيث ينام العبدان ،

وجدهما يغطان فى نوم عميق ،

عادإلى مكانه ،

عبث فى حاجياته بجواره ،

استخرج قلما ودواة مداد ،

استند إلى رمحه المستقر بجواره

خطا إلى حيث الإبل ،

قلب فى رحل ناقته ،

رفع الفتان

وجذالعيبة

شرع يكتب :

ياصاحبى ،

تلوما

لاتعجلا .

إن الرحيل

رهين ألا تعذلا ،

فلعل بطأكما

يفرط سيئا ،

أو يسبق الإسراع

سيا مقبلا .

ياراكبا ! !

إما عرضت فبلغن .

أنس بن سعد

إن لقيت

وحرملا ،

لله دركما

ودر أبيكما

إن أفلت العبدان

حتى يقتلا .

من مبلغ الأقوام

أن مرقشا . . ،

أمسى على الأصحاب

عبئاً مثقلا .

ذهب السباع بأنفه ،

فتركنه

أعثى عليه بالجبال . .

وجيئلا،

وكأنما ترد السباع بشلوه ،

إذ غاب جمع بنى ضبيعة

منهلا ،

عاد إلى مكانه وئيدا . . .

رقد ،

سمع جلبة وحركة ،

يستيقظ العبدان ،

عاوده بعد الرقاد وجيب ،

تناوم خوفا من اكتشاف أمره . .

- إنه مايزال نائما ،

الجارية تخطو بهدوء . .

تنظر إليه عن كثب ،

والدمع فى عينيها ،

وضعت بعض الطعام والأعشاب والماء على مبعدة منه .

- هل تجهزت للرحلة؟ .

- أجل ، على رغمى . .

تركا له راحلة وأخذا ناقته .

أجدا السير مبتعدين . .

وأقلعا عنه . .

وهو عليل . . فرد . . .

اعتدل قاعدا فى فراشه ،أخذ يفكر ،

ربما يرى أحد من أسرته ما كتب على الرحل . .

وربما لايحدث هذا ،

وتكون النهاية ،

أراد النهوض فأعجزه المرض ،

شعر كأنه مقيد بأغلال لافكاك منها ،

عواء ذئاب يقترب . . .

الذئاب تتجمع ثانية أمام مدخل الكهف ،

تحاول الدخول . . .

تنظر إلى حيث يرقد عمرو ،

أصابته رعدة ،

أهى رعدة الخوف؟

أم رعدة المرض؟

ولكن هناك شىء يصيبه بالحيرة ،

لماذا تصر هذه الذئاب على اقتحام الكهف؟

هل تطلبه طعاما؟

لقد لاحظ أن الذئاب تدخل الكهف وهو خال، كما

ليس من عاداتها اقتحام مكان به سكان ،

إذن لابد أن سبباً آخر يجعلها تصر على ماتفعل؟

زاد تجمع الذئاب ،

قام متحاملا ،

استل سيفه ،

شرع يلوح به محاولا إبعاد الذئاب ،

تتراجع قليلا ،

مكشرة عن أنيابها ،
لكنها تعود محاولة دخول الكهف ،
تدور حول المكان لاهثة فاغرة أفواهها ،
يبعدها ثانية .
صوت صراخ أحد الذئاب ند فجأة.
جلبة وهرج . .
الفوضى سادت فى القطيع،
أحد الذئاب يتلوى على الأرض،
الدم يندفع من بطنه،
رنا إليه عمرو ،
لاحظ سهما مثبتا فيه ،
تشممت الذئاب أخاها الصريع ،
شرعت تجره بعيدا ،
ابتعدت فجأة متفرقة أشتاتا ،
كأن هناك ماتخشاه ،
لمح المرقش خيالا طارقا من بعيد ،
رجل يتقدم ومعه جعبة سهامه وأقواسه ،
متوشحاً سيفا كأنه ذاهب لقتال ،
نباح كلب ،

يبدو من ورائه قطيع من الأغنام والماعز ،

أفراد القطيع يتلاصق بعضها ببعض ،

يعدو بجوارهم كلب ،

يقترب الرجل ،

يدهش لوجود عمرو بالكهف ،

يحييه . .

- من أرى ؟

- أنا عمرو بن سعد بن مالك البكرى ، فمن أنت وما شأنك ؟

- أنا تميم بن عائذ المرادى ،

وقعت كلمة المرادى وقع السهم فى قلب عمرو فخفق بشدة . . .

- أنحن فى أرض مراد ؟

- أجل ، وأرعى أغناما لهم ،

شعر عمرو بضعف شديد ،

ووهن أعجزه عن الوقوف ،

كاد يسقط إعياء ،

ساعده الراعى على الجلوس ،

- أتتخذ هذا المكان مرعى ؟

- ان وراء هذا التل مرعى جيدا.

وهو ليس ببعيد عن مضارب القبيلة ، ولكن الذئاب . .

- لمن من مراد ترعى؟

- إنها غنم الدهاس بن عاتق من بنى عطيف المراديين .

همس عمرو واجما :

- قرن الغزال ! !

* * *

الفصل الرابع

كهف خبار

مضارب قبيلة مراد تمتد إلى مشارف خط

ربوة معشوشبة تحيط بالواحة ،

فارس يقترب،

أعرابى يسوق الإبل

– يا أخى . .

أهذه مساكن مراد؟

– أجل ، مابغيتك؟

– أسأل عن منزل الدهاس بن عاتق الشهير بقرن الغزال.

– ومن تكون؟

– سفيان بن سعد بن مالك البكرى .

– إنه فى الجهة اليمنى ،

وراء تلكما النخلتين .

ماعز تنزو حول المكان ،

أغنام تثغو ،

صبية يتصايحون ،

يعدون ،

يفيئون إلى ظل نخلة ،

— من القادم؟

عبد يخرج من دار قرن الغزال . .

تتبعه جارية .

— أهذا منزل الدهاس بن عاتق؟

— هو كذلك .

— أين رب البيت ؟

— تخلف لبعض شأنه .

أسماء بالداخل ، تخيط بعض ملابسها ، يتناهى إلى مسمعها صوت سفيان، قلبها يخفق بشدة،

تترك مابيدها ،

تتشح برداء ،

تخرج منادية على جاريتها ،

— من بالباب؟

— رجل يقول إنه سفيان بن سعد . .

ازدادت دقات قلب أسماء . .

— أدخليه ،

هذا ابن عمى ،

العبد يدعو سفيان للدخول ،

أسماء تتقدم إليه مصافحة . . محيية . .

تضع على رأسها خمارا ،

يخفى بعض وجهها.

لم تتغير كثيرا . .

سوى ماتنتظره من وليد . . .

– لقد تغيرت يأسماء . . .

– ومن ذا الذى لايتغير يا ابن عم ،

مرحبا بك . .

أعدى شرابا وطعاما يا هند !

– لاعليك ،

ومعذرة أنى لم أجد زوجك .

– إنه يأتى الآن .

كيف الأهل والأقربون؟

وكيف . . .

لم تقو على نطق الاسم .

لاشفقة ، بل خوف من رد مفاجىء .

– عمرو بخير وكذا الجميع ،

ولكنى جئت لأحذركما ،

بهتت أسماء .

– تحذرنا ممن ؟

- من عمرو أخي .

ازداد وجيب قلب أسماء ،

صوت خفيض كأنه صوت القلب :

- من عمرو؟! كيف؟

- لقد عاد من رحلته ، وعلم بزواجك

ورحلتك إلى مراد ،

وهو الآن في طريقه إليك متوعدا زوجك بالويل والثبور ،

بل والانتقام والعودة بك .

- كفى !. !

نشيج مكتوم .

- لاترهقي نفسك ، فإنك بحاجة إلى الراحة.

- ما أظنه يفعل !

إني أعرفه حق المعرفة ،

ولايمكن أن يقدم على فعل كهذا . .

- ربما ، ولكن أرجو إبلاغ زوجك وتحذيره . .

عليه أن يعد للقائه مع رجال القبيلة بمجرد ظهوره ،

فتهدئة الموقف أجدى .

وأرى - وهو رأي القبيلة - أن لاجدوى مما يقدم عليه

إلا الندم وسفك الدماء.

- ليس عهدى بعمرو طائشا مندفعا .

ولست أرى أنه سينفذ ما قرر . .

- لقد قمت بما أراه واجبا ، وارجو أخذ الحذر لسلامته وسلامتكم.

وهل يعلم عمرو بمقدمك؟

- كلا .

فقد سلكت طريقاً أخر لأسبقه ،

دعته أسماء للجلوس ،

دلفت إلى الداخل ،

الجارية تقدم لسفيان شرابا وبعض التمرات .

جلبة بالخارج ،

صوت حوافر فرس ،

صهيل وصليل ،

الدهاس يدلف إلى الداخل ،

يفاجأ بسفيان الذى يتقدم إليه مصافحا .

- أهلا بك فى دارى .

ولكن ما أتى بك؟ أهو شوق؟ أم حاجة ؟

- جئت لتحذيرك من عمرو أخى !

- عمرو ! ولماذا؟

— لقد عاد من سفرته ، وعلم بزواجك من أسماء ورحيلها معك ، ويريد الانتقام منك والعودة بأسماء .

— إذن فإنى مقابله ، والسيف حكم بيننا .

— ما جئت لهذا الأمر ،

فلست بمغتاله .

إنما جئت لأهدئ من روعك وأخذ الحيطة ، وإعداد العدة للقائه ، وتطييب خاطره ،

وثنيه عما أعتزم .

— كيف وقد توعدنا بالقتل؟

— عليك ومعشر شيوخ القبيلة ، رده عن ذلك .

— وإن لم يمتثل؟

— إنى عليم بأخى ، هو مندفع، لكنه يحمل قلبا لينا ، سيمتثل لنصحكم.

لكن ، أرجو ألا تخبروه بتحذيرى لكم ، واجعلوا الأمر يبدو طبيعيا ، وبعد أن يهدأ يمكن إخباره بالحقيقة.

— أتريدنى أتقدم بطلب العفو والمغفرة ممن جاء يطلب رأسى ، ويخطف امرأتى؟ أم تبغى إذلال شيوخ القبيلة ، لقد جئت شيئا فريا .

— لا أريد شيئا من ذلك ، ولو كنته لما أتيت لتحذيرك .

إنما مبتغاى اتقاء شر قد يستطير ويتطاول .

- وإن لم أفعل؟

- في هذه الحال ، سأقف بجانب أخى ،

أثأر بكل من يمسه بسوء .

- إذن فأنت تهددنا أيضا .

- ما هذا بتهديد .

تخرج أسماء على صياحهما . .

صارخة ،

باكية :

- كفاكما ! !

هذه الشحناء والبغضاء لاطائل من ورائها .

ولنناقش الأمر بتريث وتعقل .

- لايوجد الآن عقل .

يجلس الدهاس،

يخلع نعليه ،

تقدم له الجارية شرابا ،

يجفف عرقه .

- أما ترين التهديد والوعيد؟ !

- أعلم ، لكن الأمر ليس كما تتصور .

كان أجدر بك أن تشكر ابن عمى على تحذيره ،
لا الثورة والغضب .
الدهاس يرمق امرأته بنظرة نفاذة . .
– إنك لاتدركين شيئا مما يحدث،
وليس لك التدخل فى هذا الأمر .
تتصنعين العقل والرزانة ،
والحقيقة أن حب عمرو ما يزال عالقا بقلبك . .
لقد حاولت على امتداد هذه الأشهر أن أمحو هذا الحب
من قلبك ولكن يبدو أننى فشلت..
أسماء تبكى . .
ترمق زوجها منظرة تغشاها الدموع.
– أجل ، أحبه ،
أحبه من يوم أن عرفت ما الحب .
ولن يمحو أحد هذا الحب من قلبى حتى الموت.
– أتعترفين بالخيانة أيتها الفاسقة !
لست بخائنة أو فاسقة ، فقد حافظت على بيتك
وشرفك..
لكن قلبى ومايشعر به ،
فليس لأحد به شأن .

- والله !

لولا هذا الجنين فى أحشائك ، لألقيت بك إلى وحوش الفلاة .

أو أعدتك من حيث أتيت.

- على رسلكما .

فلم آت لإثارة المواجع والخلاف . . . ، فلنطرح ذلك جانبا ، ولنتدبر الأمر بحكمه وتأن لتجنب القتال وسفك الدماء.

فلو أصاب عمروا مكروه ، فإن قبيلة بكر بن وائل بأسرها ستقدم إليكم للثأر .

أسماء تجلس منتحبة بحرقة،

تغطى رأسها بيدها ،

يبدو عليها الإعياء،

يرمقها زوجها ، يسكن قليلا ،

يتجه ناحيتها ،

يربت على كتفيها ورأسها ،

ليس من داع لهذا البكاء .

إنك بحاجة إلى الراحة والسكينة .

أسماء لاترد ،

النشيج متقطع . . مستمر ،

– سأوكل الأمر لشيوخ القبيلة ،

عساهم أن يتخذوا فيه مايرونه .

– إنى مغادر الآن ، قبل أن يأتى عمرو .

أسماء ترفع رأسها إليه .

مودعة بدمع فياض ،

نظرات ذات مغزى.

– أتعود إلى القبيلة؟

– أجل.

حتى لايرانى عمرو عند عودته.

أو فى الطريق ،

وأرجو التوفيق للجميع.

يحى سفيان بن سعد أسماء وزوجها .

يحمل على فرسه سريعاً .

صفير الرياح ينبعث عن بعد ،

أصوات طيور تحط،

رغاء بعير مسموع ،

حرملة بن سعد بن مالك يجلس أمام خبائه بديار بكر .

يمسح سيفه

صفحة السيف تبرق تحت أشعة الشمس.

بعض كلاب الحى حوله تتنابح .

تقفز هرة إليه ،

تستكين بجواره ،

يمد يده لها مداعبا . .

ناظرا نحو الأفق.

لقد ذهب أخواه . .

كلاهما فى طريق ،

نظر إلى الطير الساقطة،

تناول حجرا وزجرها ،

طارت يسارا ،

تشائم ،

– هيا ياحرمل . .

الطعام معد .

نحى سيفه جانبا ،

قام ،

قفزت الهرة وعدت ناحية المنزل ،

لمح سوادين قادمين عن بعد ،

توقف . .

رنا باستطلاع ،

وجب قلبه ،

اثنان؟ كيف؟

- الأمر لايبشر بخير . .

التوقع واحد . .

أو ثلاثة أو أكثر .

أما اثنان؟

خطا إلى الأمام ليتحقق من القادمين . .

العبدان يتصنعان البكاء وهما يتقدمان . .

ينيخان الراحلتين .

يترجلان ،

يخطوان نحو حرملة ،

الخوف والهواجس تدب إليه ،

تحقق منهما.

- أين عمرو؟

مالأمر؟

خبراني .

العبدان لايجيبان بطائل ،

البكاء مستمر . . .

يخرج من الخباء سعد بن مالك وزوجه وبعض العبيد والإماء .

- ماذا ياحرملة؟

- ماذا حدث لابنى؟

بالله لاقلتما شيئا .

يتبادل الغفلى وزوجه النظرات .

- لقد مات عمرو المرقش ياقوم . .

وقعت الكلمات وقوع الصاعقة على الجمع الواقف .

تصلبت أطراف حرملة .

أنس بن مالك يخرج من الخباء .

- ماهذا؟ خبرونى . .

صرخة الأم تشق عنان السماء .

تلطم خديها .

- وا ولداه !

العبيد والإماء يندبون مولولين ..

تقدم حرملة ، ورجلاه لاتكادان تقويان على حمله

أخذ بخناق العبدين ..

كيف كان ذلك ؟

خبرانى يا نذيرا الشؤم !

- انطقا !

ماذا حدث لأخي؟

- لقد نهشته أفعى في الطريق ، فمرض

حملناه معروضا إلى كهف خبار ،

بقي أياما يصارع الحمى ،

حاولنا علاجه بشتى الطرق .

لكنه مات منا ،

دفناه بجوار الكهف ،

وقد نفقت ناقته بعد أيام في طريق العودة ،

وأتينا لإخباركم .

- واضيعتاه يا ولدى .

مات في سبيل أسماء ،

لكم نصحته بالتريث وتحكيم العقل ،

لكنه لم يمتثل ،

هاهى النتيجة والنهاية .

- وأين حاجياته وسلاحه؟

- دفناها إلى جواره ،

- اغربا الآن عن وجهى .

العبدان يسوقان الناقتين إلى حيث حظيرة الإبل

يتابعهما حرملة بناظريه ،
استعاد موقف الرحيل . .
عمرو يعد راحلته ،
يضع حاجياته على ظهر الناقة ،
الناقة ترزم ،
عويل منبعث من الخباء
الحزن مخيم على القبيلة .
النساء يتشحن بالسواد .
يغطين رءوسهن ،
الرجال واجمون أمام النيران ،
العبيد والإماء يبكون الفارس الراحل ،
حرملة يضيق بالمكان ،
يتجه بعيدا حيث المكان الرحب ،
يتنسم الهواء ،
تسيل دموعه ،
على مساقط دمع كان قد جمدا
يحاول التخلص من الضيق والكآبة ،
يفكر . .
أيدفن عمرو أخوه؟

الشاعر الفارس هكذا .

أين المغتسل؟

أين الكفن؟

من حمله على سريره؟

وليس من ولى فيثنى عليه

يدفن عمرو ،

بدون استنزال الرحمة؟

العبدان . . الحية . .

الموت . . الناقة . .

شعر أن هناك شيئا غريبا ،

وأن الحوادث وماقاله هذان العبدان ،

لاتتفق وطبيعة الأمور ،

كهف خبار؟

لقد سمع عنه وعن النبع وراءه ،

الآن يدفن أخوه عنده ،

الناقة أيضا نفقت ،

تلك التى رافقته فى رحلته ،

يعرفها حق المعرفة ،

تذكر شيئا . . .

إن إحدى الناقتين اللتين ساقهما العبدان تشبه ناقة

عمرو،

ربما هى ،

وإن كانت هى . . فما التى ماتت إذن؟

تناوبته الهواجس والمخاوف .

وبدأت حواسه تصدق حدسه ،

أسرع إلى حيث حظيرة الإبل . .

وجد الناقة . .

تفحصها . .

إنها ناقة عمرو لاشك . .

الناقة ترغو . .

تنظر إليه . .

كأنها تشكو إليه بعبرة . .

ولكأنها تكاد تتكلم . .

يخفق قلبه بشدة وهو يربت عليها بيده ،

طفرت من مقلتيه العبرات ،

يتحسس رحل عمرو ،

العيبة والفتان ،

يقلبهما . .

لاحظ نقشا أقرب ما يكون إلى الكتابة ،

الخط يعلمه حق العلم ،

فما هو إلا شعر لأخيه عمرو ،

عدل من وضع الرحل ليستطيع القراءة ،

الأبيات كما كتبها الشاعر العليل ،

وجم حرملة .

فهم معنى الأبيات والغرض من كتابتها ،

أصابته دهشة . .

لقد سفرت الحقيقة أمامه ،

لقد صدق ما كان يخامره من شك ،

امتزج بكاؤه بفرح غامر .

اختلط السرور بالغضب معا .

خرج مسرعا صارخا :

- إن مرقشا لم يمت . .

إن مرقشا لم يمت . .

هرول الناس إليه . .

عقدت الدهشة ألسنتهم ،

- هاتوا لى العبدين للتو .

- ما ألامر يا حرملة ؟

- الآن تعلمون كل شيء . .

- إن ناقة عمرو بالحظيرة ،

وعليها أبياته بخط يده ،

- إذن فقد سرقوا ناقته .

- بل أبدلوها بأخرى .

سكنت الجلبة قليلا عدا بعض الهمس ،

تضاءل الصراخ والبكاء ،

النسوة تضعف ولولتهن وهن ينظرن إلى حرملة مشدوهات. ،

يتجمع سعد بن مالك وفتيان القبيلة حول حرملة .

- كيف تقول ذاك؟ مالأمر؟

- على رسلكم جميعا . . انتظروا . .

- يأتي الخدم بالغفلي وزوجه باكيين .

- لا أظن أن عمرواً قد مات .

- كيف ذاك وقد واريناه التراب معا؟

- ودفنتم ناقته أيضا؟!

- نعم .

- فما تلك التي في الحظيرة إذن؟

العبدان يحملقان في حرملة . .

ينقطع بكاؤهما . .

- إنكما لكذوبان أفاقان!

- لم نكذب .

- أصدقانى القول قبل أن أطيح برأسيكما معا .

ترددا قليلا .

تبادلا النظرات فى وجل .

الجارية أوشكت على النطق لكن زوجها أشار إليها بألا تتحدث .

- هيا تكلمى ولاتخشى أحدا ،

انهارت الجارية وقصت ماحدث .

- إنكما لقاتلاه أيها الوغدان .

ركعت الجارية أمام حرملة تستجدى العفو .

الجميع يصيحون ابتهاجا . .

حرملة يستقدم الغفلى . .

صرخات الانتقام تسمع . .

- اقطعوا أيديهما لسرقة الناقة .

- لقد أعادوا الناقة . .

- إذن القتل . . القصاص .

ثارت حمية حرملة ،

العبد يصيح طالبا المغفرة . .

يمسك حرملة برأس الغفلى مستلا سيفه .

— أتترك أخى فى حالة تلك وتعود أيها الحقير الرعديد !

يرفع الغفلى يديه صائحا مستجديا العفو . .

ماكادت صيحته تنتهى حتى كانت رأسه تتدهدأ على الأرض.

— أما أنت فكان أولى بك ألاتتركيه ، ولعله يعانى الآن من آلام الحمى وحيدا ، وربما أوشك على التلف.

ضربة غير مثناه أطاحت برأس الجارية . .

الجمع الحاشد ينظرون مشدوهين ، ثم ما لبثوا أن تفرقوا:

أم عمرو تصيح فرحا . .

جسدان مخضبان بالدماء ملقيان على الأرض ،

حولهما آثار دماء ابتلعتها رمال الصحراء ،

رأسان منفصلان ،

لم يتقدم لدفن الصريعين أحد حتى الصباح ،

فمان فاغران ،

تدخل الزنابير فيهما وتخرج من العنق ،

شيوخ القبيلة مجتمعون ،

سفيان بن سعد لم يعد بعد ،

– ماذا ترون؟

أنس بن سعد يتقدم ،

– سأغادر الآن إلى ذلك الكهف .

– لا يا أخى ،

أنا ذاهب ،

فلى معرفة بهذه الأرض ، ولعلنى أوفق فى الوصول إليه

قبل أن يلقظ أنفاسه الأخيرة .

أم عمرو تسمع من وراء الستر ،

تعود إلى البكاء . .

– ثلاثة من أولادى يذهبون ،

– لاعليك يا أم ، فأنا ما برحت معك ،

يدخل أنس بن سعد إليها . .

يأخذ بيدها ، ويربت على ظهرها ،

يحاول التسرية عنها ،

ينفض الجمع ،

يذهب البعض لدفن العبدين . .

يرنو عمرو ببصره عبر مدخل الكهف إلى السماء .

هأنذا صرت وحيدا .

أهو مقدم الموت؟

أشبح النهاية؟

يتحامل . .

يستند متكئا على جانبه الأيمن ،

تذكر الناقة - البلية عند بداية الرحلة ،

الناقة تعقل على قبر صاحبها ،

لاتعلف ولاتسقى حتى الموت ،

فيحشر عليها يوم القيامة ،

إذا لم يفعل حشر على رجليه،

لقد أحسست بهذا المصير ،

كأنه ينتظرني وقتئذ .

الراعي المرادى يخطو إلى النبع ليملأ قدحا ،

يقدمه لعمرو ،

يمد يدا واهنة ،

نظرة أثقلها الداء العضال ،

اليد ترتجف ،

يتساقط الماء من القدح .

- لم تقل لي بعد ماشأنك؟

وماسبب غشياتك هذا الموضع خاصة؟

ألّلرعى فقط؟

سعال متقطع ،

- لاتتكلم ،

أراك تحتاج الى راحة ،

إنك لمصدور ولشهيقك حشرجة.

- قل لى .

أترى أسماء؟

أهى بخير؟

- أسماء زوج قرن الغزال؟

- أجل كيف هى؟

- لا أراها ، بل أقوم برعى أغنام زوجها كما قلت فى هذه المنطقة التى تتميز بمرعاها الجيد ، وأعود مع غروب الشمس .

- ألا تدرى عنها شيئا؟

- كلا .

ولا أدنو منها ،

ولكن تأتينى جاريتها كل ليلة ، فأحلب لها عنزا .

لتقدم الحليب لسيدتها .

عمرو ينصت مفكرا ،

سعاله مستمر . . .

- أريد إبلاغها رسالة ،

يحملق الراعى فى دهشة ،

- وما شأنك بها؟

- إنها لقصة طويلة . .

- لاأبغى توريط نفسى . .

عليك بالراحة والسكون.

وأنصحك بعدم التفكير فى هذا الأمر .

واحك لى عن بلاء قومك فى حرب البسوس .

اعتدل عمرو فى جلسته .

اغرورقت عيناه ،

لسنا كأقوام مطاعمهم كسب الخنا ،

ونهكة المحرم ،

إن يخصبوا

يعيوا بخصبهم ،

أو يجدبوا

فهم ألأم ،

عام ترى الطير دواخل ،

فى بيوت قوم معهم ترتم،

ويخرج الدخان من خلل الستر ،

كلون الكودن الأصحم ،
حتى إذا ما الأرض زينها النبت ،
وجن روضها وأكم ،
ذاقوا ندامة ،
فلو أكلوا الحنطبان ،
لم يوجد له طعم ؛
لكننا قوم ،
أهاب بنا فى قومنا ،
عفافة وكرم ،
أموالنا نقى النفوس بها،
من كل مايدنى إليه الذم ،
لايبعد الله التلبب والغارات ،
إذ قال الخميس نعم ،
والعدو بين المجلسين ،
إذا ولى العشى ،
وقد تنادى العم ،
يأتى الشباب الأقورين ،
ولاتغبط أخاك ،
أن يقال حكم ،

يقوم الراعى ليدخل الأغنام الكهف على دفعات ،
ترنوى ،
تعود من حيث أتت ،
عواء الذئب يشق الفضاء حولهما من بعيد ،
ينهض الراعى عجلا ،
يتجه إلى غنمه المتجمعة ،
يهش بعصاه عليها ،
يبعدها عن المكان قليلا ،
يدور كلبه الوفى حولها نابحا ،
تتقدم الذئاب ،
عاوية ، صارخة . .
مقبلة نحو الكهف ،
يعود الراعى ،
يلتقط قوسه ،
يعد أسهمه ،
تقترب الذئاب من مدخل الكهف ،
يسدد الراعى ضرباته نحوها ،
يوجرها عدة من أسهمه ،
يسقط ذئب واثنان ،

دماء وصراخ ،

تتجمع بقية القطيع حول الصرعى ،

ينظرون إلى الراعى بأعين ملؤها الغضب واليأس ،

كأنها تتوعد ،

تعود البقية من حيث أتت ،

- ما أمر تلك الذئاب؟

أتريد أغنامك؟

- إنها ليست بحالة من الجوع كما تتصور .

- إذن فما الدى يدفعها إلى إتيان هذا الكهف دوما؟

يعود الراعى إلى مجلسه ،

يضع قوسه وأسهمه جانبا ،

عينه على دوابه ،

يسرح بناظريه عبر الوادى . . .

- إنه واد محيط بالكهف خصيب ،

عشب جيد صالح للرعى ،

دهر بعيد مر أمام أجيال الأرض ،

يحمل امتداد هذا الوادى إلى مشارف القبيلة ،

أين أنت أيتها الينابيع الحارة؟

زمان صعب يأتى ،

سنوات عجاف تتابع ،

غاضت مياه الينابيع ،

جف العشب ،

لم يعد منه إلا ماحول الكهف ،

المكان الوحيد المتبقى للرعى،

يتوارى عبر الزمان عن أعين الراحلين العابرين ،

سكنته الجن ،

أقامت به زمنا ،

الذئاب ترتع فى الوادى ،

تقتنص طعامها من شياه الرعاة ،

– أتسكن الجن الكهوف؟

– أجل والمواضع أيضا ،

ألم تسمع عن أمة وبار؟

أمة مشهورة ،

فى القدم نزلت رمل عالج ،

مابين اليمامة والشحر ،

طغت وكفرت ،

فأهلكها الله وخرب بلادها ،

سكنتها الجن،

فلا يألفها بعدها إنسى ،
وضربت العرب بها الأمثال ،
وخوفت من سلوكها الأقطار ،
وكذلك هذا الموضع ،
لم يبق سوى هذه المنطقة المحيطة بالكهف ،
وذاك النبع وراءه ،
ترتوى الذئاب من مياهه الدافقة ؛
لم تجد لها منفذا إليه سوى الكهف ،
اتخذته الذئاب طريقا للنبع
جلبة الذئاب وعواؤها أزعجت الجان ،
هجرت الكهف .
تعود الذئاب إلى أوجرها وسط الفيافى بعد أن تشرب ،
هذا النبع المكان الوحيد لشرب الأغنام أيضا ،
فهو يجاور المرعى المتبقى ،
مصدر الحياة للصديق والعدو معا ،
مصدر الحياة هو المشترك الوحيد بين الذئب والشاة ،
ولكى ترتوى الغنم لامعدى من إبعاد الذئاب ،
لايجدى معها الصراخ أو التهديد ،
فهى تهاجم وتصر ،

باتت مصدر إزعاج دائم ،
فلا مفر - كما أرى - من صرعها والقضاء عليها ،
لقد اقتنصت من أغنامي الكثير ،
ولابد من الثأر ،
فالحرب بيننا سجال كما ترى ،
تذهب ثم تعود ،
هكذا الحال . . .
- ألا يوجد مكان آخر لشرب الذئاب سوى هذه العين؟
- هناك بعض الأبار ، القليلة المياه ،
لاتكفيها . .
- إذن فهى مضطرة لخوض الكهف .
- وإني لفى انتظارها . .
أمنعها حتى تهلك عطشا
أو أقتلها . .
لقد تتبعت مرارا صغارها وقضيت عليها في جحورها .
وسيأتي وقت تختفي فيه تماما عن هذا المكان ،
الراعي ينهض من مكانه .
- الليل قرب قدومه ،
سأغادر الآن ،

عليك بإشعال النار أمام الكهف لإبعاد تلك الضوارى ،

الذئاب لاتقتحم النار ،

وتوشح سيفك ،

ولكن لاتلجأ إلى استخدامه إلا فى الضرورة القصوى ،

سأترك لك هذه الجعبة من السهام مع القوس ،

فقد تحتاجها .

صراخ شاة على مبعدة ،

كلب الراعى الحارس ينبح بشدة ،

يستميت فى الدفاع عن الغنم ،

لكنه يتراجع أمام قطعان الذئاب ،

الراعى يعدو إلى حيث الصوت ،

يعود يحمل شيئا تتساقط منه الدماء ،

أشلاء وبقايا ،

— قتلت من الذئاب اثنين ،

وعدت بنصف شاة ،

هذا طعامك ،

سأعود من الغد ،

يقتطع الراعى قطعة من الشاة ،

يلقى بها إلى كلبه ،

يتناولها الأخير بين فكيه ،
يذهب الراعى بأغنامه بعيدا ،
عمرو يرقبه حتى يختفى عن عينيه ،
هكذا الحياة . .
قتل ودماء . .
موقف مأساوى عنيف ،
ينضاف إلى آلام المرض ،
أرضك يا أسماء قريبة ،
هذا مايخفف عنى تلك الأوصاب ،
ولكن ، كيف السبيل إليك؟
فالمرض يقعدنى
والضعف يشلنى ،
أصبح الشوق إليها ،
أقوى من انتقامى ممن أخذها ،
الراعى وصلته بزوجها ،
خفف من تلك الاندفاعة الهوجاء ،
لكنى لم آت لرؤيتها ،
بل لأخذها والانتقام . .
أيمكن للراعى هذا أن يقدم له يد العون؟

أيمكنه أن يصله بأسماء؟
ولكن كيف يصلنى وأنا بهذه الحال؟
كيف يكون انتقامى وراعى قرن الغزال واسطته؟
وهذه الذئاب ،
مابرحت تحوم حول الكهف ،
تريد خوضه لرى ظمئها
تحافظ على بقائها
العقبان تحوم مازالت ،
تنتظر نهايته ،
تنتظر أن تطعم من لحمه ،
أهى تشعر وتؤذن بموته؟
ألا تكفى كواسر الأرض ،
حتى تأتى كواسر السماء؟
كيف النجاة منها؟
ما المصير إذن؟
ألا يضعنى القدر إلا فى طريق الذئاب؟
الذئاب فى كل مكان ،
الحياة كلها مرتع ذئاب ،
الخلق ذئاب ،

العدو والصديق،
كلاهما ذئب ،
يحدث نفسه بصاحبه ،
الراعي جاء بدافع الانتقام ،
والذئاب جاءت بدافع الانتقام ،
صورة العالم فى كهف ،
أو كهف فى صورة العالم ،
سكون . . .
أراد الوقوف ،
خارت قواه ،
شعر ببرودة ،
تحامل على نفسه ،
جمع بعض أخشاب الشجر الجافة والأعشاب ،
أوقد النار،
أضاءت النار ماحولها من حنادس الليل ،
التقط بقايا الشاة ،
أعدها ،
وضعها على النار ،
دخان يصعد فى الهواء . .

أخذ يراقب النار ويذكيها ،

سرح ببصره عبر الظلام ،

- يا ترى هل وصل العبدان الآبقان إلى القبيلة؟

هل اكتشف الأهل حقيقة الأمر؟

أم تراهم خدعوا

ولاسبيل إلى منجاة؟

أخذته غفوة وهو ينظر إلى النيران ،

الشواء أوشك على الاحتراق ،

أفاق على هبة نسمة طافت بالمكان،

تحركت ألسنة النار التى زاد اشتعالها ،

من خلال الظلام لمح أشباحا تتقدم ،

أهم زوار؟

ومالذى أتى بهم إلى هذا المكان؟

يرتدون البياض ،

أتوا ناره كمن يستطلع شيئا ،

ليس من وجوه واضحة السمات أو الملامح ،

لكنها وجوه أناسى على أية حال ،

وقفوا حول النار ساكنين ،

- منون أنتم؟

— سراة الجن ،

من قبيلة بنى شيصبان ،

رجفه شملته ،

جف حلقه ،

— عموا ظلاما ياسادة ،

إلى الطعام ،

قال منهم من يبدو زعيمهم :

— نحسد الأنس الطعاما ،

لقد فضلتم بالأكل فينا ،

ولكن ذاك يعقبكم سقاما ،

— أجل .

أنا أدرى بالسقام ،

ولكن ماالذى حداكم إلى التصور لى ؟

اقتربوا . .

قال أحدهم :

— هوى فيك ،

ورغبة فى سماع قريضك ،

فأين شيطانك ؟

— يمكن استحضاره ،

سلوا ماشئتم . . .

– سمعنا عن قدومك يوما على المنذر بن ماء السماء ،

وظلمه إياك ،

فماذا كان موقفك وقتئذ؟

اعتدل عمرو فى جلسته متحاملا

– أشرت لهذا فى قصيدتى:

لمن الظعن بالضحى طافيات ،

شبهها الدوم أو خلايا سفين ،

جاعلات بطن الضباع شمالا ،

وبراق النعاف ذات اليمين ،

وقلت فيها :

أبلغا المنذر المنقب عنى ،

غير مستعتب ولامستعين ،

لآت هناً

وليتنى طرف الزج ،

وأهلى بالشام ذات القرون ،

بامرىء مافعلت عف يؤوس

صدقته المنى .

لعوض الحين ،

غير مستسلم ،

إذا اعتصر العاجز بالسكت ،

فى ظلال الهون . . .

– هذا يعنى أنك لاتكترث بما حل بك من ظلم وطرد.

– ذاك لأنى أترفع عن هذه الصغائر .

– فماذا قلت إذن فى آل جفنة ،

بعد أن فتك ملكهم ببعض قبائل العرب؟

– ذكرت هذا فى قصيدتى :

هل بالديار أن تجيب صمم ،

لو كان رسم ناطقا كلم ،

الدار قفر ،

والرسوم ،

كما رقش فى ظهر الأديم قلم ،

ديار أسماء التى تبلت قلبى ،

فعينى ماؤها يسجم ،

أضحت خلاء ،

نبتها ثئد ،

نور فيها زهره ،

فأعتم ،

بل هل شجتك الظعن ،

باكرة ،

كأن النخل من ملهم ،

النشر مسك ،

والوجوه دنانير ،

وأطراف البنان

عنم ،

وهى القصيدة التى رثيت فيها ابن عمى ثعلبة ،

وذكرت فيها آل جفنة ،

وقلت عنهم وعن ملكهم :

ماذنبنا أن غزا ملك ،

من آل جفنة حازم مرغم ،

مقابل ،

بين العواتك والغلف ،

لانكس ولاتوأم ،

حارب واستقرى قرابضة ،

ليس لهم مما يحاز

نعم ،

بيض مصاليت

وجوههم ،

ليست مياه بحارهم بعمم ،

فانقض مثل الصقر

يقدمه جيش ،

كغلان الشريف لهم ،

إن يغضبوا

يغضب لذاك ،

كما ينسل

من خرشائه الأرقم ،

فنحن أخوالك عمرك ،

والخال له

معاظم وحرم ،

لسنا كأقوام

مطاعمهم كسب الخنا ،

ونهكة المحرم . . .

– هذا لايدل على أنك تنفى تهمة فتك هذا الملك

بيعض قبائل العرب فحسب ،

بل إنك تمدحه وتمدح جيشه ،

وتظهر قرابة قومك له .

- هو ذاك .

- إن ذلك ليدل على علاقتك بهؤلاء وملوكهم قبل خوضك حرب البسوس .

شعر عمرو بضعف ،

كمن أثقله وطأة المرض .

- نعم إن تجربتى معهم أعطتنى خبرة وجلدا .

ابتسم أحد الجان .

لمح عمرو نابين فى فمه ،

أصابته الابتسامة بالرعب والضيق .

- لقد أعلمتنا بما أردنا أن نعرفه .

يتراجع الجان إلى الخلف ،

يختفون وسط الظلام ،

تهب رياح خفيفة ،

تحرك ألسنة النيران ،

يسود السكون .

مالذى أتى بهؤلاء؟

وما الهدف من أسئلتهم تلك؟

المنذر بن ماء السماء ،

رفض الظلم ،

آل جفنة ،

نفى تهمة الفتك ،

الترفع ،

ماتفسير ذلك ياترى؟

إنهم يكشفون الجانب الأخلاقى منه ،

العلاقة بينه وبين الناس حوله ،

ومن التقى بهم .

لماذا؟

شعر وكأنهم يودعونه،

كأنهم يذكرونه بما فعل ،

كأنهم يسجلون ما قاله ،

للأجيال التالية ،

لست أدرى .

أشعروا بأن نهايتى حانت؟

تذكر الطعام .

مد يده ،

يلتقط ماتبقى ،

لم يستطع ازدراد قطعة .

تذكر الناقة بجوار الكهف ،

شعر بالخوف عليها ،

التفع بمئزره ،

خرج يجر أعطافه متحاملا تحت سطوة الريح ،

وضع بعض الأعشاب أمام الناقة ،

عاد إلى جلسته فى الكهف ،

سمع عواء ذئاب ،

أليس من آخرة لهذه العواء المتصل ؟

أقبل ذئبان يحومان حول المكان .

تقدم أحدهما في سكون ،

أقعى أمام النار ينتظر ،

الآخر مازال يجول متشمما مستطلعا ،

الذئب القاعد ينظر إلى عمرو ،

كأنه يطلب نصيبه من الوليمة ،

ألقى إليه الشاعر بعضا من شوائه ،

تقدم الذئب بحذر هادئا ،

مصدرا صوتا أجش ،

التقطها مسرعا ،

أقبل زميله ،

مكشرا عن أنيابه ،

يريد انتزاعها منه ،

الأول يعدويها غنم ،

الثانى يقعى بدوره منتظرا ،

يلقى الشاعر إليه بما تبقى ،

تناوله الذئب ،

نظر إلى عمرو نظرة نفاذة ،

ربما تحتوى معنى الشكر ،

أو ربما طلب المزيد ،

إنها نظرة تختلف تماما عن نظرة الذئاب إلى الراعى ،

أقبلت ذئاب أخرى . .

أحست أن هناك وليمة تقام ،

لكن لاطعام ،

الذئاب تتجمع صارخة أمام النار ،

تذكر عمرو نصيحة الغفلى ،

ندم على ما فعل ،

تحيط جموع الذئاب بالكهف . .

هل تطلب غذاءها؟

أم الارتواء من النبع وراءه؟

إنه حقها ،

وطريقها ،

وحياتها ،

ولكن لاسبيل إلى ذلك ،

وإلا صرت طعامها ورواءها ،

لا مفر من منعها بأية وسيلة .

يمسك المرقش بقطعة من الخشب مشتعلة ،

يلوح بها في وجه الذئاب ،

تتجمع الذئاب غاضبة ،

تجرأ واحد أو اثنان ،

اقتحما مدخل الكهف ،

تراجع عمرو إلى وراء ،

يلوح بيأس في وجه الذئب الأول ،

وقف الذئب فجأة ،

لكن الشاعر لاينى يلوح في وجهه بالنار ،

شعر كأن هؤلاء الوحوش يعدون للهجوم عليه ،

لكن الذئب المقتحم

نظر إلى عمرو لحظة

تراجع فجأة وتبعه الآخرون ،

لكنهم استقروا على مبعدة . .

أتراهم يعاودن الكرة؟

الذئاب تصوت ،

كأنها تعزف سيمفونية الموت ،

شعر بوطأة المرض والضعف ،

لابد من منعهم حتى يبرأ من علته ،

ويغادر هذا الكهف الملعون ،

تناول شعلة أخرى ،

اتكأ على فراشه ،

محاولا إبقاء الشعلة منتصبة فى يده ،

يكاد من الإعياء أن يغشى عليه ،

خفتت حدة أصوات الذئاب ،

الدخان ملأ الكهف ،

كلما خبت شعلة أوقد غيرها ،

يحاول أن يظل يقظا ،

الذئاب ماتزال متجمعة

منتظرة . .

يصر على الصمود ،

النعاس يغالبه ،

مر ما حدث سريعاً أمامه . .

الحية . .

خيانة العبدين . .

الكهف المظلم . .

تذكر قصة شيطان القيلولة ،

أمه نمود ،

حنظلة بن صفوان ،

الشيطان . .

القصر المشيد الذى سكنته الجن ،

إنه واقعه الأليم . .

موقفه من قومه ،

القبيلة ،

العبدان الآبقان ،

الكهف ثانية ،

حديث الجان ،

مناقشتهم

تكشفت الحقيقة أمامه . .

تذكر قول الكاهن

أمقضى عليه بالموت؟

لو كان تأمل رواية الغفلى عن الشيطان ،

لكان علم بمصيره،

تتابع التحذيرات ،

الكاهن . .

الشيطان . .

الجان . .

أكان قذف الشيطان له بالحجارة تحذيرا؟

لم يفطن إلى الأمر حينئذ؟

هكذا تحققت النبوءة . .

أوعلى وشك أن تتحقق ،

الأيام تعيد نفسها ،

الحوادث تتكرر ،

مالحاضر إلا إعادة للماضى ،

النعاس يأخذ منه . .

– أيها القوم !

إن مرقشا بالوادى . .

– أيها المرادى !

إن عمرو بن سعد البكرى ،

قد أتى يطلب أسماء ،

إن لقيك ،

فنفسك دون نفسه ،

– وماذا ترون؟

– قل لأسماء إنه سيمر عليك ،

فأطلعى رأسك إليه ،

وأسفرى ،

فإنه لا يرميك ،

ولا يضرك ،

ويلهو بحديثك ،

عن طلب بعلك ،

حتى يلحقه إخوته فيردوه . .

– ها أنت يا أسماء أخيرا . . .

أنت يافلقة القمر الساطع . .

أغالبك القلب اللجوج

صبابة وشوقا ،

إلى أسماء ،

أم أنت غالبة ،

يهيم ،

ولا يعيا بأسماء قلبه ،

كذاك الهوى ،

إمراره ،

وعواقبه .

أيلحى امرؤ

فى حب أسماء؟

قد نأى ،

بغم من الواشين ،

وازور جانبه ،

وأسماء

هم النفس

إن كنت عالما ،

وبادى أحاديث الفؤاد

وغالبه . .

- ياعمرو !

ها أنت ، أقبل .

- ماذا أرى حولى؟

أنسا وحرملة أخوى؟

مالهذا الضباب يحيط بى؟

هلا بينتما لى حقيقة الأمر؟

- عد معنا يامرقش . .

لاتقدم على فعل ذلك . .

– لماذا تردانى عن أسماء؟

لماذا تجرانى وتبعدانى عنها؟

بعد أن أصبحت بين يدى؟

– تعقل يا عمرو .

ليس هذا الفعل من شيم الكرام .

– ليس سوى أن أبقى بقربها ،

أناجى هذا الوجه المضىء .

– هيا . .

أهلك فى انتظارك . .

أتركانى . .

ابعدا عنى . .

أسماء . .

أسماء . .

صرخة حادة أطلقتها أسماء . .

وليد يستقبل الحياة بالصراخ . .

يقوم عمرو فزعا من مرقده على صراخ الذئاب .

يجد الشعلة ساقطة ،

والدخان وسط الظلام ،

يملأ الكهف . . .

***

الفصل الخامس

طريق الذئاب

— أبشر يادهاس .

لقد رزقت بصبى ،

— كيف أسماء؟

— بخير . .

يندفع قرن الغزال إلى داخل الدار .

عند مطلع الفجر ،

الراعى يتجه بأغنامه إلى أرض المرعى ،

يسبقه كلبه ،

يتلفت حواليه بحثا عن الذئاب عند اقترابه من الكهف .

ناقة عمرو افترستها الذئاب ليلا ،

لم يبق منها إلا أشلاء ،

ربما فى ذلك منجاة له ،

العقبان تحط عليها ،

أو ماتبقى منها ،

ينظر الراعى داخل الكهف ،

بقايا عظام . .

رائحة عفنة منبعثة من البقايا ،

يتحامل عمرو ليجلس لدى رؤيته الراعى .

- كيف أنت اليوم؟

- كما ترى . .

لقد عجزت تقريبا عن السير ،

سمعت صراخ الناقة عند هجوم الذئاب عليها ليلا ،

ولكن لم استطع النهوض.

- والذئاب؟

- لقد هاجمتنى ليلا عدة مرات ،

لكنى استطعت إبعادها .

- لقد نجوت بمعزة .

يسكت عمرو قليلا ،

يعتدل فى جلسته ،

- لو كان حى ناجيا .

لنجا من يومه

المزلم الأعصم،

فى باذخات من عماية ،

أو يرفعه

دون السماء

خيم . .

من دونه

بيض الأنوق ،

وفوقه

طويل المنكبين ،

أشم ،

يرقاه

حيث شاء منه .

وإذا تنسه

منية

يهرم ،

فغاله

ريب الحوادث

حتى زال عن أرياده ،

فحطم .

ليس على طوال الحياة

ندم

ومن وراء المرء

مايعلم ،

يهلك الوالد ،

ويخلف مولود ،

وكل ذى أب

يتم ،

والوالدات

يستفدن غنى ،

ثم على المقدار

من يعقم ،

لقد رأيت فى المنام رؤيا أفزعتنى عن أسماء .

- إن سيدتى قد رزقت بمولود مساء أمس .

- لكأنى سمعت صراخها عند المخاض ،

حقا . . ولد ذكر؟

- نعم ..

- أهى بخير؟

- بخير وشكرا للآلهة .

- لكم اشتاق لرؤيتها الآن .

قبل أن يحين الأجل .

- بالله خبرنى .

ماحكايتك مع أسماء؟

- إنه سر لا أستطيع البوح به .

وإن كان شعرى أفصح عنه .

– لم أعلم قبل الوقت ،

أن بينكما صلة . .

– لاصلة كما تتصور ،

لكنها قصة يطول الحديث فيها ،

صمت قليل ،

يلتقط عمرو أنفاسه ...

– أطلب منك معروفا.

مد يده . .

نزع من أصبعه خاتما ذا فص لؤلؤى .

نظر إلى الخاتم مليا ،

كم داعبته أسماء ،

كم عبثت به ،

ولايزال يحمل ريحها ،

دفعه إلى الراعى . .

– خذ هذا الخاتم . .

احتفظ به .

حتى تأتيك جارية أسماء .

فإن حلبت لها ،

فاطرحه فى اللبن ،

ولاتقل شيئا .

فستعرفه ،

وإنك مصيب به خيرا ،

لم يصبه راع قط إن أنت فعلت ذلك .

تناول الراعى الخاتم بعد تردد ،

— ومابغيتك من وراء ذلك؟

— افعل ماقلته فحسب ،

ولاتذكر لهم من أنا ،

وكأنك لاتعرفنى ،

أخفى الراعى الخاتم بين طيات ملابسه ،

قام يهش على غنمه ،

يدخلها مجموعات إلى الكهف لترتوى ،

الكلب ينبح .

صوت ذئاب يسمع من بعيد ،

تردده الموماة ،

قطرات العرق تنصب من رأس عمرو ،

تسقط على عينيه ،

يكاد يعشو بصره من ضوء الشمس ،

تذكر فخذى الجارية القريتين اللذين احتضناه .

تمنى لو يضاجعها الآن ،

انتقل فكره إلى النقيض ،

أسماء . .

الوجه الآخر . .

أتراها تتعرف على الخاتم؟

أم تراها نسيته ونسيت خاتمه وانشغلت بمولودها .

وماذا لو عرفته؟

أتراها تأتى؟

أم تبقى ساكنة؟

وما شأن زوجها لو علم؟

أيمكنني القدر من أن أراها؟

أم يسبقها الموت؟

ولكن هل يمكن للموت أن يعدنى عنها؟

إنها يوما ستموت ،

سنلتقى معا ،

فلربما يجمع الموت ،

مالم تستطع جمعه الحياة ،

فأحبب به مصيرا ،

يجمعنى وإياها . .

الهواجس تنتابه ،

تناول قدحا بجواره ،

رشف منه عدة رشفات ،

استلقى على ظهره ،

أفاق على صوت ذئاب تقترب ،

الراعى يستعد للقائها ،

صراخ . .

الصوت نفسه . .

حيوان مصاب يتألم ،

دخل الراعى إلى الكهف ،

يحمل فى يده هيثمين صغيرين ،

انغرست فيهما سهام ،

يشخبان دما . .

– إن اقتناص صغارها يجعلها تخشى القدوم . .

وتؤثر الابتعاد ،

كما يجعلها تتناقص ،

أصابت عمرو رعدة . .

تألم لهذا المنظر ،

كيف انعدمت الشفقة من نفس هذا الراعى الأطيش؟

صوت ذئب يقترب ،

أقرب إلى العويل والبكاء ،

منه إلى العواء . .

أسرع الراعى إلى غنمه ليجمعها ،

فى حين أخذ الكلب ينبح متصلا ،

لكنه يتراجع أحيانا . .

إنها أنثى . .

يبدو أنها أم الهيثمين الصريعين ،

تترنم بعويل ،

ترنم ثكلى أوجعتها الجنائز ،

تبينت مقتل جرويها ،

ربما أتت للانتقام . .

وقد امتلأت أطباؤها باللبن ،

تدلى لسانها ،

برزت نيوبها ،

لعابها يقطر إلى الأرض ،

نفسها يعلو ويهبط ،

ما أن رأت الراعى ،

حتى وجهت إليه نظرة ،

نظرة كلها مقت وتوعد ،

كأنها تريد غرس تلك الأنياب فى رقبته ،

الراعى لم يتردد ،

أوجرها خرقاء ،

كأن ريشها كوكب ينقض ،

لم يصبها فى مقتل ،

ازدادت جرأة وصرامة ،

اندفعت ناحيته . .

كالبرق يتبعه الرعد ،

أطلق الراعى قذيفة أخرى ،

أصابت الهدف ،

صرخت الذئبة ،

تلوت ساقطة على الأرض ،

الدماء تندفع منها ،

ظلت تدور حول نفسها ،

أطرافها ترتعد ،

تفحص الرمل بأقدامها ،

روحها تزهق ،

نفسها يضعف شيئًا فشيئًا . .

حتى سكنت حركتها ،

تصلبت أعضاؤها ،

فمها شاغر مرسوم عليه تعبير الألم ،

عيناها مفتوحتان ،

تحملقان فى الراعى . .

الكلب يتشمم الذئبة ،

ذئاب أخرى تبدوفى الأفق ،

تقترب من الكهف . .

– أليس من نهاية لهذه الذئاب؟

– إنها عطشى ،

لكن لا سبيل إلى ولوجها الكهف ،

وإلا قضت عليك وعلى غنمى . .

تقترب الذئاب وتدور حول المنطقة المحيطة بالكهف ،

كلب الراعى ينبح ،

لكنه لايستطيع فعل شىء . .

– إن هذا الكلب لم يعد بقادر على حماية الغنم ،

لقد تكاثرت الذئاب عليه ،

وسيأتى يوم يصبح فيه فريسة لها ،

الذئاب تتريث قليلا ثم تنصرف . .

يحمل الراعى الذئبة القتيل ،

يضعها على دابته . .

– إنى راحل . .

سأعلق جلدها فى دارى . .

– لاتنس الخاتم وما أوصيتك به ،

– سأحقق ما تبغى ،

ولكن عليك بالراحة ،

يختفى سواد الراعى وأغنامه وسط كثبان الرمال . .

يقبل الليل ،

الشياه والماعز داخل الحظيرة ،

ثغاؤها متتابع لا ينقطع ،

الراعى يتقدم نحو شاة ليحلبها ،

يضع الإناء تحت ضرعها ،

صوت الحليب وهو مندفع داخل الوعاء ،

الإناء أصبح مفعما باللبن ،

يعلوه رغوة وفيرة ،

وضعه الراعى جانبا ،

استخرج خاتم عمرو من ملابسه ،

أسقطه فى اللبن ،

جارية أسماء تأتى ،

تتناول إناء الحليب وتنصرف ،

هريرة تموء بجوار أسماء ،

تهدهد أسماء مهد الوليد حتى يغفو ،

ثم تتركه ،

تتجه حيث حاجياتها ،

تخيط بعض الثياب ،

لم تتناول عشاءها بعد ،

تدخل الجارية وبيدها إناء اللبن ،

وضعته جانبا وغطته ،

قامت أسماء لتشعل النار . .

– اللبن ياسيدتى ،

– دعيه ريثما تسكن رغوته . .

تعالى ساعدينى فى إعداد الطعام ،

فالدهاس فى شرف بنجران ،

وعلى وشك القفول ،

تعود أسماء إلى مجلسها بعد إذكاء النيران ،

تكشف وعاء اللبن ،

تصيب منه جرعات ،

تعيد تغطيته ،

صوت قرقعة الخشب عند اشتعاله ،

الهريرة تقترب من إناء الحليب ،

تتشممه ،

تموء . .

تبعدها أسماء ،

وتستكمل حياكة ثوب لها ،

تمد يدها إلى حيث الإناء ،

تكشفه . .

تعب مافيه إلى نهايته ،

شيء يقع ثنيتها .

ماهذا؟

تنظر أسماء فى قاع الإناء ،

ومازالت آثار الحليب حول فمها ،

تجد الخاتم ،

تتناوله بيد ،

اليد الأخرى تمسح بها فمها ،

تقوم إلى حيث النيران ،

لتستضىء بها ،

تتفرس فى الخاتم ،

تملؤها الدهشة ،

مسحت الخاتم ،

تمعنت فيه مليا ،

خفق قلبها بشدة ،

عقدت المفاجأة لسانها ،

تعرف هذا الخاتم حق المعرفة !

إنه خاتم عمرو المرقش ،

حبيبها الغائب ،

لاتكاد تصدق ،

فكم لامسته وحركته ،

وداعبته فى يد عزيزة عليها ،

نهضت مسرعة ،

صاحت بجاريتها :

— من أين لك هذا الخاتم؟

— أى خاتم ياسيدتى؟

— هاكه !

وجدته فى قاع إناء الحليب . .

– لاعلم لى به .

– ألست من أتيت بوعاء اللبن ؟

– بلى وقد أعطانيه الراعى مملوءاً ،

صوت غير بعيد ،

صهيل فرس ،

الدهاس عاد ،

يترجل ،

يربط فرسه ، .

يتجه إلى حيث حظيرة الإبل ليطمئن عليها ،

يغلق باب الحظيرة ،

يجمع بعض عيدان الشجر ،

– اذهبى واستدعى الدهاس فورا ،

تخرج الجارية مهرولة ،

أسماء تذرع حجرتها ذهابا وإيابا ،

لا تستقر)من القلق ،

كيف سقط الخاتم فى اللبن ،

من أين أتى به الراعى؟

أهى إشارة؟

أم استغاثة؟

أم نداء؟

لست أدرى . .

مايزال الخاتم بيدها ،

تتمعن فيه حينا ،

يدخل زوجها مندفعا . .

- مالأمر؟

لم دعوتنى؟

- ادع عبدك .

راعى غنمك . .

الآن . .

- لماذا؟

خبرينى . .

- قلت لك ادعه وحسب . .

الجارية أتت وراء الدهاس ،

يشير إليها باستدعاء الراعى . .

- ألا تخبرينى بجلية الأمر؟

- تريث قليلا . .

ستعرف كل شىء بعد ،

تمر فترة كأنها ساعات ،

جلبة بالخارج . .

تدخل الجارية معلنة وصول الراعى . .

- ها قد وصل ،

فماذا تريدين منه ؟

- سله . .

أين وجد هذا الخاتم ؟

أبرزت أسماء الخاتم لزوجها ،

تناوله . .

أخذ يتمعن فيه . .

- ماهذا الخاتم ؟

ولمن هو ؟ وماصلة الراعى به ؟

- قلت لك سله وحسب .

خرج الدهاس إلى الراعى متعجبا . .

سأله :

- أعطانيه رجل مريض بكهف خبار ،

قال اطرحه فى اللبن الذى تشربه أسماء ،

وما أخبرنى من هو .

وقد تركته بآخر رمق ،

كما أن الذئاب تحيط بالكهف ،

ولايقدر على الحركة ،

ذكر الدهاس لزوجته ماقاله الراعى ،

شهقت ،

أصابها الاضطراب . .

طفرت الدموع من عينيها . .

- ألا تخبرينى ما شأن هذا الخاتم؟

- إنه خاتم عمرو المرقش . .

- ابن عمك؟

- أجل ،

فأعجل الساعة فى طلبه . .

- فى طلبه؟

كيف يكون ذلك؟

وما الداعى؟

لا أفهم شيئا . .

ألم يخبرنا أخوه أنه أتى للانتقام وأخذك؟

ونحن فى انتظاره .

- إنه مريض كما سمعت ،

لن يقوى على انتقام أو نحوه ،

بله الحركة . .

وقد يكون قد . .

فى لحظة . .

كما أن الذئاب . . .

لم تقو على النطق . . .

انخرطت فى البكاء . .

- كيف يكون ذلك؟

- أترانى آتى به بنفسى إليك؟

تصرخ أسماء مولولة . .

- إنه يحتضر .

ألم يقل راعى غنمك

إنه بآخر رمق؟

وأنه قد يصبح فريسة للوحش؟

الوليد يصحو فجأة صارخا . .

- لقد أيقظته بصياحك ،

أسماء تهرع إلى وليدها . .

ترفعه إلى صدرها ،

وهى تمسح دموعها ،

تنظر إلى زوجها . .

– إذا لم تذهب ،

سأذهب أنا . .

– إنك إذن لزانية . .

وحق عليك الموت . .

بكاء مستمر . . .

نظر الزوج إليها مليا . .

وهى تحمل الطفل ،

وعبراتها تنحدر على وجنتيها المتوردتين . .

– هونى عليك . .

سأفعل ما تريدين ،

سأتولى أمر إحضاره

عند أول ضوء للفجر ،

لم يغمض لأسماء جفن ،

الفراش كأنه حسك السعدان ،

تراعى وليدها حينا ،

وتذهل عنه حينا آخر ،

أحاسيس شتى تنتابها ،

الأفكار تلاحقها . .

أتراك حى يا عمرو؟

لقد كنا فى انتظارك . .
فما الذى أوصلك إلى هذه الحال؟
وماذا لو قضى؟
وماذا يكون الأمر إذا حضر وشفى؟
ماذا يكون موقفنا ساعتئذ؟
كيف؟
أتراك حى؟
أم خطفك الموت قبل أن أراك؟
السهاد استبد بها حتى مطلع الفجر . .
عند ظهور ضوء الفجر ،
أيقظت أسماء زوجها من رقدته ،
يستيقظ قرن الغزال متثاقلا ،
يخرج إلى الخلاء فترة ،
يعود ،
يتناول بعض التمرات ،
يصيب من الحليب شيئا ،
ينظر إلى وليده ،
ثم يعدل من ملبسه ويخرج ،
ينادى على الراعى :

- أترك الغنم الآن . .

وأسرج أفراسا ثلاثة ،

يعود الراعي بالأفراس ،

خلا على متن جواديهما ،

ووراءهما فرس مسرج ،

تراقبهما أسماء بقلب كسير ،

يكاد ينفطر من شدة دقاته ،

حتى غابا عن نظرها . .

الذئاب تعود . .

تتجمع عند الفجر ،

أمام باب الكهف ،

قررت - كما يبدو -

أن تضرب ضربتها الأخيرة . .

عمرو لايستطيع حراكا . .

ثقلت أعضاؤه . . .

- إنها النهاية كما أرى . . .

جف حلقه ،،

حرارته تشتد ،

غشيت عيناه ،

رأى أمامه نيوبا ،

هى للجنى المبتسم ،

بل إنها لذئب ضخم ،

يحاول اقتحام الكهف،

عمرو يتحامل صائحا . .

مشيحا بسيفه فى وجه الذئب ،

ذئب آخر يتقدم . .

يتبعه اثنان . .

يكشرون عن أنيابهم ،

اليد لم تعد تقوى على حمل السيف ،

السيف يسقط ،

يحاول التقاطه بجهد ،

لكنه لم يفلح ،

أهى يده ؟

أهى ذات اليد التى كانت تطيح برقاب الأعداء وسط القتال؟

الذئاب تجرأت . . .

لما رأت من عجزه وضعفه ،

أراد النهوض ،

شعر بألم شديد فى ساقه ،

الذئاب اقتربت منه ،

رمقته مليا . .

لم تكن عنيفة غادرة . .

أخذت تتشمم رحله وملابسه ،

يدفعها بيد صائحا ،

تشيح بوجوهها ،

لكنها لم تتراجع ،

بقية القطيع تقترب من باب الكهف . .

يدلف بعضها إلى الكهف ،

بحثا عن الماء ،

عمرو يسد الطريق ،

أتريد إيذاءه؟

تحيط به . .

أيقن بهلاكه ،

وقد أخذ منه الضعف مأخذه ،

أغمض عينيه مستسلما ،

صيحات أنسية فى الخارج ،

تصدر لإبعاد الذئاب ،

تجفل الذئاب قليلا ،

تخرج من الكهف . .

لكنها تنتظر على مبعدة ،

يترجل قرن الغزال والراعى ،

يسرعان الخطو إلى الداخل ،

يفاجآن بأن عمروا مغشى عليه ،

يسند الراعى رأس عمرو ،

شفتان متشققتان ،

يسقط الراعى بعض قطرات من الماء عليهما ،

يلقى قرن الغزال رداءه على عمرو . .

— لنحمله من هذا المكان . .

— ضعه أمامك معروضا على فرسك . .

وأردف الثانى وراءك . .

الذئاب تهاجم الرجلين ،

تقترب من الكهف ثانية ،

يهددها الراعى بسيفه ،

تتراجع خطوة أو خطوتين ،

لكنها لا تبتعد ،

تزداد عنفا وشراسة ،

الأفراس تجفل ،

تصرخ صاهلة ،

يتعاون قرن الغزال والراعى على وضع عمرو على الجواد،

الذئاب تحيط بالركب ،

— أليس من سبيل إلى الخلاص من هذه الوحوش؟

— فلنبتعد عن الكهف لنجعلها تدخل وتتركنا . .

— لكنها قد تتبعنى وتهاجمنى والفرس خلفى ،

فحركة الجواد تثقل إذا كان يحمل راكبين . . .

— سأحاول إعادتها ومنعها حتى تبتعد مسافة كافية ، ولكنى أرى أنها تريد المياه وراء الكهف ويمكنها الآن ذلك لخلوه .

وسأعود فى إثرك ،

قرن الغزال يهمز فرسه ،

يتحرك الجوادان متجهين إلى منازل قبيلة مراد . .

الراعى يبتعد عن مدخل الكهف ليمكن الذئاب من الدخول ،

لكن الذئاب لم تدخل الكهف ،

بل واجهت الراعى ،

اتجهت نحوه ،

استغرب الأمر ،

كيف تترك المياه التى تسعى جاهدة لها وتأتى إليه؟

اقتربت منه مبرزة أنيابها . .

صوتها الشديد يصك أذنيه ،

رمى أحدها بسهم ،

سقط يصرخ ويتلوى ،

لكن القطيع الغاضب لم يتراجع ،

ازدادا اقترابا منه ،

يكاد يحيط به ،

أنياب بارزة دوما ،

عواء قاس متصل ،

لم يدر الراعى أين يوجه سهمه التالى ،

تراجع إلى الخلف . .

محاولا الاحتماء بالكهف . .

لكن الذئاب تبعته ،

استطاع رمى سهم أخر ،

لكن السهم طاش ،

ارتبك . .

سقطت جعبة السهام على الأرض ،

فزع الراعى إلى استلال سيفه من جرابه ،
طفق يلوح به فى أوجه الذئاب ،
التى امتلأت كراهة وغضبا . .
صارخا للتراجع ،
الذئاب لم تمتثل . .
اشتد صوت الذئاب كأنه موسيقة صاخبة شاملة ، ،
كأنهن ينشدن جميعا لحن الانتقام الرهيب ،
أقبل الذئب الأكبر ،
الروح الأعظم ،
ضخم الجزارة ،
تتضالع هامته ،
مكشرا عن أنياب كأنهما المعاول ،
يخرج عواء من فم كالغار الأخرق ،
ألقى يبصره نحو الراعى ،
بعينين سجراوين ،
كأنهما سراجان يتقدان ،
حملق فيه هنيهة . .
تصلب الراعى فى مكانه ،
كأنه صنم من حجارة ،

على حين غرة ،

اندفع الذئب الأكبر نحو الراعى . .

اندفاعة السهم الضال ،

واثبا عليه ،

طرحه أرضا ،

سقط سيفه بعيدا ،

الجواد يستغيث ،

قطع رباطه . .

عدا نحو الوادى ،

ووراءه مجموعة من الذئاب . .

حاول الراعي متساندا أن يمد يده ليمسك بمقبض السيف ،

لكن الوحش تناول يده بين فكيه ،

الراعى يصرخ ألما . .

الذئاب تصرخ بدورها وراءه . .

كأنها تنادى زعيمها ،

بالإجهاز على عدوها ،

لكن الذئب لم يترك اليد ،

التى كانت تحمل السيف والسهم ،

حتى كادت تتفتت ،

وثب فجأة ذئب آخر إلى عنق الراعى ،

وغرس أنيابه فيه ،

صرخة مريرة مكتومة ،

ثم اندفع الدم من فم الراعى . .

وثب ثالث إلى إحدى رجليه يجرها ،

الذئاب تصيح ،

مستكملة نشيدها ،

وثب رابع إلى بطن الراعي فشقها بعنف ،

استخرج أمعاءه ،

وجعل يلغ في دمه ،

حشرجة الموت ورعشته الأخيرة ،

تريث قرن الغزال فى سيره . .

كأنه سمع صرخة انشقت لها أجواز الفضاء ،

آتية من ناحية الكهف ،

أوقف جواده . .

استدار إلى حيث مصدر الصوت ،

رنا ببصره ،

لم ير شيئا ،

نظر إلى عمرو ،

ثم استأنف السير إلى مضارب قبيلته . .

الذئاب تنقض جميعا على جسد الراعى ،

تمزق أوصاله ،

كل يشد شلواً منه ،

ويعدو به ،

كأنه جزء من مكافأة أو جائزة حصل عليها ،

تجمعت فوق الجسد المفتت

حتى لم يعد يرى ،

الذئاب تقتحم الكهف ،

والدماء فى أفواهها ،

الكهف يعج بها ،

تهدمت أركانه ،

بعثرت محتوياته ،

اختلطت بقاياه بأشلاء الراعى ودمائه ،

تتجه الذئاب متجمعة إلى حيث نبع الماء ،

لاتزال تنشد النشيد نفسه ،

تعب من الماء ماشاء لها أن تعب ،

تصيح صيحات الفوز والانتصار ،

اختلطت المياه بدماء الراعى ،

ازتوت الذئاب من النبع ملء بطونها ،

ظلت تذهب وتجىء ،

بين أشلاء الراعى والمياه ،

كأنها لاتريد ترك المكان ،

اتخذ الكهف شكل الطريق ،

كأنه لم يكن مكانا لإقامة أناس . .

الطريق . .

إلى حيث المياه . .

طريق الذئاب . .

إلى الحياة . . .

يلمح حرملة بن سعد راكبا من بعيد ،

إنه أخوه سفيان ،

اتجه سفيان إليه على متن فرسه ،

الأخوان يتبادلان التحية ،

— ماوراءك ؟

يقص حرملة قصة خيانة العبدين ،

— تبا لهما . .

— إنى ذاهب للبحث عن عمرو بكهف خبار . .

- لقد أنجزت مهمتى فى تحذير أسماء وزوجها ،
وأرى أن أذهب بصحبتكِ . .
- ليس من داع ،
لأن أمنا فى حالة من الجزع لرحيلنا ،
ولم يبق معها إلا أنس ،
فعليك بالعودة ،
وطمأنة الأسرة على مافعلت ، فهم بحاجة إليك الآن .
وسأعود بعمرو ،
يودع سفيان أخاه ،
- اذهب يرعاك « عوض » ،
ينطلق على متن فرسه . .
يستمر حرملة فى سيره ،
يمر يومان . .
يرسل حرملة بن سعد بصره حول الوهاد ،
والوادى ذى العشب تحت الشمس،
لمح مدخل الكهف على غيره مبعدة ،
إنه لاشك كهف خبار ،
حث ناقته على المضى ناحيته ،
تقدم وجلا من باب الكهف ،

أناخ الراحلة،

ترجل ممتشقا حسامه ،

لابد أن يكون عمرو بداخله ،

صوت قضقضة عظام ،

عظام حيوانات ،

أشلاء إنسان ،

ممزقة . .

ملقاة هنا وهناك ،

ضباع تجوس خلال الكهف ،

تهرب لدى رؤيتها حرملة ،

الحرارة شديدة ،

هواء ساخن ،

يحرك بقايا الملابس الممزقة ،

المختلطة بالدماء ،

سكون مطبق . .

الضباع تقف على بعد ،

تنتظر . .

جال ببصره حول مدخل الكهف ،

سيف وجعبة ،

سهام متناثرة ،

خفان ملقيان ،

رأس إنسان نهش تماما ،

لم يعد له ملامح مميزة ،

انتابته رعده ،

جاس فى الكهف على حذر ،

رائحة تزكم الأنوف ،

فوضى شاملة ،

آثار دماء ،

أمتعة ممزقة ،

سيف آخر . . ،

تناوله . .

فإذا هو سيف عمرو ،

أصابه ضيق شديد . .

خشى أن يكون عمرو أكلته وحوش الفلاة ،

تعثر فى بقايا أوانى الطعام ،

قدور مقلوبة ،

إن لم يكن عمرو قتل ،

فأين هو إذن؟

لابد أن استوثق من الأمر ،

لايحق أن أفقد الأمل في العثور عليه حيا ،

أتراه واصل رحلته إلى أرض مراد ؟

لمح نبع المياه وراء الكهف ،

وقد اختلطت بالدماء ،

لم يستطع البقاء ،

خرج حثيثا . .

ربما يكون عمرو عاد أدراجه إلى ديار بكر ،

لو كان عاد لكان قابله في الطريق ،

سرح يبصره بعيدا في الأفق ،

قرر الذهاب إلى حيث يقيم بنو مراد . .

يترجل الدهاس بن عاتق عن فرسه ،

ينادى على الجارية ،

تقبل مسرعة ،

تساعده في حمل عمرو إلى داخل الخباء ،

الجمع الذى استقبل الدهاس يبدأ في الانفضاض ،

أسماء تستقبله بالبكاء . .

- أهو حى ؟

- مايزال به رمق أخير . .

عمرو فى غيبوبة ،

لايعى شيئا مما حوله ،

تهيىء أسماء فراشا لعمرو ،

يساندها زوجها والجارية ،

لكى يرقد مستريحا ،

يخرج قرن الغزال ،

منتظرا عودة راعى غنمه ،

لكنه لم يعد ،

حدث ماكان يخشاه ،

وهو آخرته ،

ومصرعه بين أنياب الذئاب ،

أسماء تتملى فى عمرو ،

لقد تغير كثيراً ،

حال لونه،

تشققت بشرته ،

انطفأ رونق الشباب فيه،

ضعفت أعضاؤه ،

أهذا عمرو الشاب الفارس الفتى ،

الذى كان يمتلىء حيوية ونضارة؟

لكن وجهه مايزال به مسحة من الوسامة الغابرة ،

جلست بجواره ،

أخذت تمسح على شعره المترب الأشعث ،

تحاول كتمان نحيبها ،

— هات الترياق الذى أعددته . .

الجارية تناول سيدتها قنينة سوداء ،

تسقط أسماء قطيرات مما تحوى على شفتى عمرو ،

دخل زوجها ،

رمقها بنظرة ذات مغزى ،

لم ينبس . .

— إنه بحاجة إلى الراحة . .

— هل تعتقدين أنه سيشفى؟

ردت أسماء بالبكاء . .

نظر إلى عمرو وأسماء ،

ثم خرج . .

رأد الضحى يقبل . .

— هل أعددت طعاما؟

— نعم ،

يدخل الدهاس ،

ينظر إلى عمرو ،

- كيف حاله الآن؟

- كما هو ،

جسد يتنفس ،

وشعور غائب ،

العرق يتصبب من جبين عمرو ،

- عليك بالراحة قليلا ،

ومراعاة الوليد ،

تقوم أسماء إلى مهد وليدها . .

- لارغبة لى فى طعام أو راحة . .

الجارية تعلن عن قدوم بعض شيوخ القبيلة لمقابلة الدهاس . .

سأخرج للقائهم . .

تمر فترة ،

يدخل الدهاس ،

ينظر الى عمرو . .

- إن القبيلة تريد معرفة مايدور هنا ، وماذا يكون وضع عمرو لو شفى .

كما حذرونى من أن مرض عمرو قد يكون معديا . .

- لا اعتقد ذلك ،

فالراعى خالطه ،

ولم يصب بشيء ،

- على أية حال كونى حذرة ،

واجعلى الوليد بعيدا ،

تخرج أسماء خلف الخباء . .

تراقب الشمس عند غروبها . .

أيكون آخر يوم فى حياته؟

ردت هذا الخاطر عن ذهنها . .

تناهى إلى مسمعها صوت . .

- إنه صوت عمرو ،

لقد أفاق ،

تهرع ناحيته ،

فتح عمرو عينيه وأغلقهما ثانية ،

يتمتم بكلام غير مفهوم ،

ازداد لونه شحوبا ،

أمسكت أسماء بيده ،

وجدتها باردة ،

سرت رعدة فى بدنها ،

زيد يخرج من جانبى فيه ،

عرق يتصبب من رأسه ،

تجلس أسماء بجواره ،

- كيف حاله؟

- مايزال غائبا عن الوعى على مايبدو . .

تسند أسماء رأس عمرو على فخذها البضة ،

تمسح على رأسه وهى تبكى ،

نظر إليها زوجها مليا . .

- إنه يحتضر يادهاس . .

أشار الدهاس إلى الجارية بالانصراف ،

ثم خرج فى إثرها . .

- تكلم ياعمرو ..

أنا أسماء . .

حبيبتك . .

سقطت دمعة على جبين عمرو ،

مسحتها بيدها ،

تناولت قدح ماء ،

بللت وجهه ،

مايزال به نبض ،

إنه يتنفس . .

تجفف قطيرات العرق ،

تمسح فمه . .

بمنديلها الحريرى المعطر ،

تتأمل وجه حبيبها ،

هدهدته قليلا . .

- ألا ترحمنى وتنطق .

أفاق عمرو قليلا ،

انفرجت جفونه عن عينين باهتيين ،

يبدو فيهما شبح الموت ،

نظر إليها . .

لم يحول بصره عنها ،

انحنت عليه ،

قبلته فى جبينه ،

انتعش قليلا ،

انفرجت شفتاه عن ابتسامة خفيفة ،

ظلت وقتا . .

تمتم:

- أسماء . .

ها أنت بخير ،
انتباهة شملته ،
- لاتبكى . .
سآخذك ،
سأعود بك إلى الديار ،
سأنتقم ممن أخذك منى ،
سعال متقطع يصدر عنه ،
تتسارع أنفاسه قليلا . .
- هون عليك . .
لاتجهد نفسك بالحديث . .
- أخيرا ...
سنحيا حياة ،
لايعكر صفونا فيه أحد ،
أخيرا أفوز بك ،
لقد حققت ما كنت أريد ،
سنذهب معا ،
إلى مكان ليس فيه هجر وشقاء ،
ستكونين لى وحدى ،
لن يستطيع هناك أحد

أن ينتزعك منى ،
لقد حققت ما سعيت من أجله بعد عناء ،
وأنا جد سعيد بهذه النهاية ،
كلا . . كلا . .
إنها ليست نهاية ،
إنها بداية اللقاء ،
حرك رأسه قليلا . .
شعر بدفء بطن أسماء وردفها البض ،
هذا الرداء المخملى الناعم ،
يود لو يقبله ،
يقبل كل ما فيه ،
سعادة غمرته . .
لم يشعر بهذا الشعور الممتع قبلا ،
حتى مع الجارية أو سواها .
أهو فى حضن ساقى أسماء الجميلتين الناعميتين؟
ما أكثر ما شاهدهما عندما كانت تلعب معه صغيرة ،
وتسقط على الأرض ، وينحسر عنها رداؤها المزخرف ،
لمح مهد الوليد ،
نظر إلى المهد فترة،

ثم رمق أسماء . . ،

ابتسم ،

سرح بذاكرته

أسماء ..

تلك الصبية الحلوة المرحة ،

ثم الحرب . . .

صرخات المحاربين . .

الكاهنة . .

الرحلة . .

الجارية وزوجها وخيانتهما . .

الذئاب . .

الراعى . .

وأخيرا أسماء ثانية ،

لتكون ختام الرحلة ،

بل بداية الرحلة الحقيقية ،

نظر أمامه . .

رأى ملك الموت ،

لمح وراءه وجها آخر لأسماء ،

أهى تبتسم؟

كلا . .

بل تبكى . .

وعلام البكاء؟

أهى تراها النهاية والفراق؟

أنا أراها الحياة الحقة . .

وبداية اللقاء الأبدى ،

إنها لا تدرى حقيقة الأمر ،

لا تدرى أننى سعيد بهذه النهاية ،

ولو درت ما بكت ،

جلبة فى الخارج ،

جمع من أهل القبيلة حول الخباء يستطلعون

يصل فارس ،

يترجل ،

مبهور النفس ،

يسأل عن عمرو ،

يخبر بوجوده ،

يخوض الجمع إلى الخباء ،

ممن بالباب؟

— أنا حرملة بن سعد بن مالك البكرى ،

يحاول دخول الخباء حيث أسماء وعمرو ،

يمنعه قرن الغزال . .

- على رسلك يا حرملة ،

- أريد رؤيته . .

- تمهل . .

إنه في لحظاته الأخيرة . .

يزيح حرملة ستائر الخباء ،

ينظر من فرجة فيها ،

يرى عمروا و أسماء وهى تحيط رأسه بذراعيها . .

يسدل الستر . .

يتراجع . .

يجلس باكيا بحرقة ،

يخيل لعمرو أنه يسمع صوتا ،

أنصت . .

- إنه عواء الذئاب . .

أتسمعين؟

لقد عادت من جديد ،

وتلك أصواتها . .

- من تلك التى عادت؟

أنا لا أسمع شيئا ،
لاترهق نفسك . .
فكرت . .
أهو هذيان الحمى؟
أم أن الشاعر الآن يرى مالايراه الناس ،
ويسمع ما لا يسمعونه ،
رمق أسماء بنظرة ثانية ،
تحركت يداه ،
أمسك بيدها ،
ضغط عليه قليلا ،
حاول أن يقبلها . .
لكن يده سقطت . .
- قبليني . .
- انحنت أسماء . .
وطبعت فوق شفتيه قبلة طويلة . .
شهقه . .
أعقبها نفس يعلو .
ثم صمت تام . . .
وسكن جسد الشاعر إلى الأبد . . .

صرخت أسماء مولولة ،
منحنية على حبيبها ،
متمسكة به ،
تهزه . .
والابتسامة على شفتيه لم
– عمرو . .
حدثني ياعمرو . .
لا ترحل هكذا . .
لاتمت . .
دخل زوجها وحرملة والجارية ليأخذانها بعيدا . .
تذهب بها الجارية باكية ،
الرجلان يسجيان الفارس ،
يغطيان وجهه وجسده برداء أسماء الحريرى الوردى ،
ثم يقفان صامتين خاشعين . .
الجمع فى الخارج ينفض رويدا . .
نشيج مكتوم ،
ينبعث بين الحين والحين ،
سكون مطبق حول الخباء ،
وما يزال عواء الذئب يتردد ،
يشق سكون الليل البارد

***


خاتمة

حتى مبعدة من منازل قبيلة مراد

تتقدم امرأة بصحبتها صبيان ،

تقف على قبر بالفلاة ،

تضع عليه طاقة ريحان جنية ،

تذرف الدموع . .

تنحني وتمسح على القبر ،

تعدل من وضع الحجارة التي عبثت بهد

الضباع ،

تزيل عنه ما علق به من شوائب الصحراء ،

النسيم يداعب رداءها ووشاحها المخملي

وشعيرات بدت من رأسها ،

تنظر إلى القبر ،

ياما جرى !

إذا جئت زائره ،

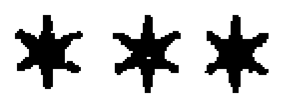
ما كان من عادتك الهجر ،

ياصاحب القبر . .

السلام . .

على من حال دون لقائه

القبر.
تلقى نظرة أخيرة
ثم تعود من حيث أتت ،
سكون مطبق ،
إلا من عواء ذئاب يتناهى من بعيد ،
يظل القبر مدة ،
ثم تعفى عليه الرياح مع مرور الزمن ،
حتى لم يعد له أثر . .



الفهرس

صواب الخطأ

الصفحة	السطر	الصحيح
١٠٢	٤	المتناقضة
١٠٩	٣	مع علمه
١٢٧	٦	يتراقصن
١٥٠	٩	شفتان منفرجتان
١٦٦	١٣	ويرقص
١٧٩	١	خط الافق
١٨٤	٨	عما اعتزم
١٨٦	١١	ترمق زوجها بنظره
١٩١	الاخير	يانذيرى الشؤم
٢٠٠	٣	ساغادر الآن
٢٣٤	١٠	نجوت بمعجزة
٢٣٥	١٥	على طول الحياة
٢٣٩	٢	القويين
٢٤٦	١٣	يقرع ثنيتها
٢٥٣	٨	المتوردتين
٢٦٦	١٦	على غير مبعدة
٢٨٢	٥	لم تزل


Bibliotheca Alexandrina
0523692